التقوى

الغاية المنشودة والدرة المفقودة

الدكتور
أحمد فريد
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية

رقم الإيداع : ١٥٢٢٤ / ٢٠٠٧

توزيع

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٢٠١٥٢٩٠٨ - ٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١٠٢٧٧١٠٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله ، نحمدُه ، ونستعينُه ، ونستغفرُه . ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومِن سيئاتِ أعمالِنا . منَ يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومن يُضللْ فلا هاديَ له . وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدهَ لا شريكَ له ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد :

فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله ، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ ، وشرَّ الأمور محدثاتُها ، وكلَّ محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ففي مثل هذه الأزمنة الغابرة التي استولت فيها الغفلة على القلوب ، وضعفت فيها العين المتطلعة إلى الآخرة فلا تكاد ترى ، وظن الناس أن السعيد من فاز في الدنيا بشهواتها ، ومن وصل إلى جاهها وسلطانها ، والشقي من حرم هذا الخير العظيم والرزق الكريم ، وهذا من الغفلة الشنيعة والجهل البليغ بالسعادة الحقيقية والشرف العظيم الذي جعله الله ﷻ للمتقين في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين ، ولو ذاقت قلوب أهل الدنيا شيئًا من مواجيد أهل التقوى ، وما يجدونه من العزة والشرف في الدنيا ، مع ما ينتظرهم من سعادة الآخرة ونعيمها ؛ لأكلوا أصابعهم ندمًا وحسرة على ما فاتهم من الخير ويفوتهم إذا استمرت غفلتهم ، فالتقوى كما قال الغزالي رحمه الله : « كنز عزيز ، فلئن ظفرت به فكم تجد فيه من

جوهر شريف ، وخير كثير ، ورزق كريم ، وفوز كبير ، وغُنْم جسيم ، وملك عظيم ، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى . وتأمل ما في القرآن من ذكرها فكم علّق بها من خير ، وكم وعد عليها من خير وثواب ، وكم أضاف إليها من سعادة »[1] .

فأهل التقوى هم ملوك الدنيا كما أنهم ملوك الآخرة ، وهم أهل السعادة الحقيقة والشرف العظيم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٥] .

وأنت يا أخي القارئ الكريم معي في هذا الكتاب نسير مع التقوى في كل باب لعلي وإياك عند الختام يمن الله علينا بالتوبة النصوح ، وما لها من الفتوح ، ويجعلنا من المتقين ، الذين تقر أعينهم في الدنيا بالطاعات ، وفي الآخرة بالجنات .

وقد جمعت لك في هذا الكتاب من المعاني الشريفة ، والفوائد

---

(١) « منهاج العابدين » ص (٧) ، مكتبة الجندي .

اللطيفة ما تنشرح له القلوب ، وتقترب به من علام الغيوب ، وغفار الذنوب . فبدأت بذكر معاني التقوى وأقسامها ، وثَنَّيْتُ بذكر شرفها وخطرها ، ثم اجتهدت في الباب الثالث في بيان ما تتطلع إليه قلوب أصحاب الهمم العالية والنفوس الأبية ، وهو في بيان كيف تتقي الله ﷻ . وذكرت لك خمسة وسائل : **الأولى** محبة الله ﷻ . **والثانية** في استحضار المراقبة والحياء . **والثالثة** في معرفة ما في طريق الحرام من الشرور والآلام . **والرابعة** في بيان كيف تغالب هواك ، وتطيع مولاك . **والخمسة** في معرفة مكائد الشيطان ومصائده ، والحذر من وساوسه ودسائسه . ثم زدتك تشريفًا وتعريفًا بأصحاب الرتب العالية والدرجات الرفيعة السامية ؛ بذكر صفات المتقين . وختمت بحسن الختام ، وهو رحلة في رياض التقوى ، ننزه قلوبنا وأبصارنا برؤية ثمرات التقوى العاجلة والآجلة . والأمر كما يقال : طَبِيبٌ يُدَاوِي .. والطبيبُ سَقِيمُ .

ولولا ما نطمع فيه من رحمة الله وعفوه وكرمه ، وأن لا نحرم دعوة صالحة من أخ كريم ؛ لتقطعت القلوب يأسًا من

النفوس وصلاحها وقلة تقواها . ولا تظن أن من تكلم عن التقوى فقد صار بذلك من المتقين ، فما أظهر الفرق بين العالم بوجوه الغنى واكتساب الأموال وهو فقير ، وبين العالم بأسباب الصحة وهو سقيم . ولكن نرجو بذكر القوم ومحبتهم أن نجد ريحًا من أثر غبارهم ، أو أن نلحق ولو بساقتهم .

وكما قال ابن الجوزي رحمه الله : « إن صدقت في طلابهم فانهض وبادر ، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر . تعرض لمن أعطاهم وسل فمولاك مولاهم . رب كنز وقع به فقير ، ورب فضل اختص به صغير . علم الخضر ما خفي على موسى ، وكشف لسليمان ما غطي عن داود »[1] .

وسوف تجد في صحبة هذا الكتاب ومبانيه ما يبين لك شرف معانيه ، فتجد شرف التقوى في طياته ، وسعادتها بين وريقاته . نسأل الله أن يجعلنا من أهلها ، وأن يقسم لنا من كنوزها وثمراتها ، وأن يبارك في هذا الكتاب وفي جامعه وناشره

---

(١) « المدهش » لابن الجوزي ص (٤٢٨) بتصرف ، دار الكتب العلمية .

ومن قرأه يلتمس الهداية والتوفيق . والله الهادي لأقوم طريق ، فهو الذي تقر القلوب بمحبته في الدنيا ، وبرؤيته في الجنة . وصلى الله على رسوله المصطفى وآله وأصحابه ومن اتبع السنة وسلم تسليمًا .

وكتبه

أحمد فريد

معنى التقوى ومراتبها

المعنى اللغوي :

قال في المصباح : « وقاه الله السوء وقاية : حفظه » . والوقاء ـ مثل كتاب ـ : كل ما وقيت به شيئًا . وروى أبو عبيد عن الكسائي الفتح في « الوقاية » و« الوقاء » أيضًا . و« اتقيت » الله « اتقاءً » ، و« التقية » و« التقوى » اسم منه ، والتاء مبدلة من واو والأصل « وقى » ا.هـ[1] .

المعنى الشرعي :

اختلفت تعبيرات العلماء في تعريف التقوى مع أن الجميع يدور حول مفهوم واحد ، وهو أن يأخذ العبد وقايته من سخط الله ﷻ وعذابه ، وذلك بامتثال المأمور واجتناب المحظور .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : « وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه . فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ؛ وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه . وتارة تضاف التقوى

---

(١) « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » للرافعي ص (٦٦٩) ، دار المعارف .

إلى اسم الله ﷻ ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى فالمعنى : اتقوا سخطه وغضبه . وهو أعظم ما يتقى ، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي . قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] . فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في صدور عباده ، حتى يعبدوه ويطيعوه ، لما يستحقه من الإجلال والإكرام ، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش . وفي الترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] : قال الله تعالى : « **أنا أهل التقوى ؛ فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا آخر فأنا أهل أن أغفر له** »(1) .

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٤٢،٢٤٣) ، وابن ماجه (٤٢٩٩) الزهد ، والدارمي (٢/ ٣٠٣) الرقاق ، وضعفه الألباني .

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله ، أو إلى مكانه كالنار ، أو إلى زمانه كيوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] ، وقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] ، ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة : ٤٨] .

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات . وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات . قال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١) [البقرة : ١-٤] .

وقال ابن القيم رحمه الله : « وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا ، أمرًا ونهيًا .

---

(١) « جامع العلوم والحكم » ص (١٤٨-١٤٩) باختصار .

فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر ، وتصديقًا بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي ، وخوفًا من وعيده ، كما قال طلق بن حبيب : إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى . قالوا : وما التقوى ؟ قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله . وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى ، فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان ، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك ، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته ، وهو الاحتساب . ولهذا كثيرًا ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ : « **من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا** »[١] ، « **ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا** »[٢] ، ونظائره . فقوله : (على نور من الله) إشارة إلى الأصل الأول

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٥) الصوم .

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٥٥) فضل ليلة القدر ، ومسلم (٦/ ٤٠-٤١) صلاة المسافرين .

وهو مصدر العمل والسبب الباعث عليه ، وقوله : (ترجو ثواب الله) إشارة إلى الأصل الثاني وهو الاحتساب ، وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل ولها يقصد به »[١] .

وقال العلامة نعمان بن محمود الألوسي رحمه الله : « وفي تحفة الإخوان : التقوى امتثال الأوامر واجتناب النواهي . ولها ثلاث مراتب :

الأولى : التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك . وعليه قوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح : ٢٦] .

والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ [الأعراف : ٩٦] وعلى هذا قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله . فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير .

---

(١) « الرسالة التبوكية » بتحقيق أشرف عبد المقصود ونشر مكتبة التوعية الإسلامية ص (١٥-١٧) .

الثالثة : أن يتنزه عما يشغل سره عن الله تعالى . وهذه هي التقوى الحقيقة المطلوبة بقوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : ألا ترى نفسك خيرًا من أحد »[(١)] .

وقال الغزالي رحمه الله : « أعلم أولًا ـ بارك الله في دينك وزاد في يقينك ـ أن التقوى في قول شيوخنا ـ رحمهم الله ـ هي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله ، حتى تحصل لك من قوة العزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصي . فإذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي من قوة عزمه على تركها وتوطين قلبه على ذلك فيوصف حينئذٍ بأنه متقٍّ ، ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين : تقوى .

والتقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء : **أحدها** بمعنى

---

(١) « غالية المواعظ ومصباح المتعظ وقبس الواعظ » (٢/ ٤٨) دار المعرفة . وقول ابن عمر رضي الله عنهما لا شك أنه يشير إلى نوع من التقوى وليست التقوى الكاملة . وأصح من ذلك أن يقال هو نوع من الزهد ، وهو الزهد في النفس ، والزهد في النفس أقصى غاية الزهد .

الخشية والهيبة . قال الله تعالى : ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] . **والثاني** : بمعنى الطاعة والعبادة . قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] . قال ابن عباس رضي الله عنهما : أطيعوا الله حق طاعتهِ . وقال مجاهد : هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . **والثالث** : بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب . فهذه هي الحقيقة عن التقوى دون الأولين ، ألا ترى أن الله يقول : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ؟ [النور : ٥٢] . ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى ؛ فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية ، وهي تنزية القلب عما ذكرناه . ثم قالوا : منازل التقوى ثلاثة : تقوى عن الشرك ، وتقوى عن البدعة ، وتقوى عن المعاصي الفرعية . ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة ، وهي قوله جَلَّ مِنْ قائل : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ [المائدة : ٩٣] .

فالتقوى الأولى تقوى عن الشرك ، والإيمان الذي في مقابلتها التوحيد . والتقوى الثانية عن البدعة ، والإيمان الذي ذكر معها إقرار عقود السنة والجماعة . والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية ، ولا إقرار في هذه المنزلة فقابلها بالإحسان ، وهو الطاعة والاستقامة عليها فتكون منزلة مستقيمي الطاعة . فالآية جمعت ذكر المنازل الثلاث : منزلة الإيمان ومنزلة السنة ، ومنزلة استقامة الطاعة .

قال : وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال . وهو ما روي في الخبر المشهور عن النبي ﷺ أنه قال : « **إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذرًا عما به بأس** »[1] .

فهذه أقوال العلماء في معنى التقوى وأقسامها . ولا شك أن اسم التقوى يسع ما ذكر ، وأحوال الناس معها لا تعارض ذلك ، فمن الناس من يقي نفسه الخلود في النار ، وذلك بالإقرار

---

(١) « منهاج العابدين » ص (٧٤-٧٥) بتصرف ، مكتبة الجندي . والحديث رواه الترمذي (٩/ ٢٧٨) القيامة ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه (٤٢١٥) الزهد ، والحاكم (٤/ ٣١٩) الرقاق ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وقال الألباني : وهذا عجب منه فإن عبد الله بن زيد لم يوثقه أحد . وضعفه في « بلوغ المرام » (٨٧١) ، و« ضعيف ابن ماجه » (٩٢٤) .

بالتوحيد وتصديق الرسول ﷺ ، ولكنه لا يقي نفسه دخول النار بالكلية ، فيفرط في الواجبات ويتلبس بالمخالفات ، فهذا نوع من التقوى ، وإن كان في أدنى درجاتها ، ولا يستحق صاحبها اسم المتقي بإطلاق ؛ لأنه متعرض للعذاب مستحق للعقاب ، إن لم تتداركه رحمة الله ؛ فإنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن الناس من يتقي الكفر وكبائر الذنوب ويداوم على طاعة الله ﷻ ـ بفعل الواجبات وترك المحرمات من كبائر الذنوب ـ ؛ إلا إنه لا يتورع عن الصغائر ، ولا يكثر من النوافل ؛ فلا شك أنه أقرب للنجاة لقول الله ﷻ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] ، وقول النبي ﷺ : « **الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتَنَبَ الكبائر** » (١) . إلا أنه لم يأخذ الجُنَّة الكاملة من النار ، فلابد أن يكون هناك من التقصير في الفرائض ، والوقوع في

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١١٧-١١٨) الطهارة ، والترمذي (٢/ ١٤-١٥) الصلاة .

الصغائر التي يخشى من المداومة عليها التجرؤ على الكبائر ، وليس له من نوافل الطاعات واجتناب الشبهات والمكروهات ما يكمل به تقوى العبد ؛ لذا قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

فالتقوى الحقيقة هي أن يجتهد العبد في ترك الذنوب كلها صغارها وكبارها ، ويجتهد في الطاعات كلها ـ الواجبات والنوافل ـ ما استطاع ؛ لعل كثرة النوافل تعوض ما قد يعرض من تقصير ، واجتناب الصغائر يجعل بين العبد وبين الكبائر جُنَّةً حصينةً ، كما قال ﷻ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] . فمثل هذا يستحق اسم المتقي ، واجتهاده في الطاعات كلها من الواجبات والنوافل ، وترك المعاصي ما استطاع من كبائر وصغائر ، وترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس ؛ هو التقوى التي دارت عليها أقوال السلف .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : تمام التقوى : أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه في مثقال ذرة ، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا ، يكون حجابًا بينه وبين الحرام ، فإن

الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه ، قال الله ﷻ : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] . فلا تحقرن شيئًا من الشر أن تتقيه ولا شيئًا من الخير أن تفعله .

وقال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سُمُّوا متقين لأنهم اتقوا ما لا يُتَّقَى .

وقال موسى بن أَعْيَن : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسماهم الله متقين .

وقال ميمون بن مهران : المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه .

وقال ابن مسعود ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، قال : أن يُطاعَ فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكْفَر [١] .

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٩٤) التفسير ، دون قوله : (**وأن يشكر فلا يكفر**) ، وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

قال ابن رجب رحمه الله : « وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات . ومعنى ذكره فلا ينسى : ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيمتثلها ، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها . وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات ، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه وسئل عن التقوى فقال : هل أخذت طريقًا ذا شوك ؟ قال : نعم . قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه . قال : ذاك التقوى . وأخذ هذا ابن المعتمر وقال :

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها فهو التُّقَى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تَحْقِرَنَّ صغيرةً إن الجبال من الحصى

وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقي .

ذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال : كيف يكون متقيًا من لا يدري ما يتقي ؟ ثم قال معروف الكرخي : إذا كنت

لا تحسن تتقي أكلت الربا ، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأة فلم تغض بصرك ، وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك »[١] .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم ، قال : قال سعيد : لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبًا فاستصغره ؛ فأتاه آت في منامه فقال له : يا سليمان :

لا تحقرنَّ من الذنوب صغيرًا
إن الصغير غدًا يعود كبيرا
إن الصغيرَ ولو تقادَمَ عَهْدُهُ
عند الإله مسطرٌ تسطيرا
فازْجُرْ هواك عن البطالة لا تكن
صعب القيادِ وشَمِّرَنْ تشميرا
إن المحب إذا أحبَّ إلهَهُ
طار الفؤادُ وأُلْهِمَ التفكيرا
فاسأل هدايتَك الإلهَ فتتئد
فكفى بربك هاديًا ونصيرا

---

(١) باختصار من « جامع العلوم والحكم » ص (١٤٠، ١٥٠) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : التقوى هي ترك ما تهوى لما تخشى .

وقيل : هي الخوف من الجليل ، والرضا بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : هي أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يغفر لنا ما بدا من تقصير ، وأن يدخلنا في شفاعة البشير النذير ؛ فقد بان بما ذكرنا عن التقوى فَقْرُنا من أقسامها ومعانيها ، وإفلاسنا من أعلامها ومبانيها .

شرف التقوى وأهميتها

١ - التقوى وصية الله ﷻ للأولين والآخرين :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] .

قال الغزالي رحمه الله : « أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد ؟ أو ليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد ؟ ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد ، وأجمع للخير ، وأعظم للأجر ، وأجل في العبودية ، وأعظم في القدر ، وأولى بالحال ، وأنجح في المآل ، من هذه الخصلة التي هي التقوى ؛ لكان الله تعالى أمر بها عباده ، وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته ، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة ، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها ؛ علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها ، ولا مقصود دونها ، وأنه ﷻ قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة ، كما يليق بحكمته ورحمته ، وعلمت

أن هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة ، الكافية لجميع المهمات ، المبلغة إلى أعلى الدرجات .

وهذا أصل لا مزيد عليه ، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى ، وعمل بذلك واستغنى . والله وليّ الهداية والتوفيق بمَنِّه »[١] .

٢- التقوى وصية النبي ﷺ لأمته :

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع فأوصنا . فقال : « **أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وعَضُّوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل بدعة ضلالة** »[٢] .

---

(١) « منهاج العابدين » ص (٧٢-٧٣) باختصار .

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧) ، وأبو داود (٤٥٨٣) السنة ، والترمذي (٢٦٧٦) العلم ، وابن ماجه (٤٣) ، والدارمي (١/ ٤٤-٤٥) المقدمة ، والبغوي (١/ ٢٠٥) « شرح السنة » ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وصححه الألباني .

قوله : « **أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة** » ، قال **ابن رجب** رحمه الله : « فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة : أما التقوى فهي كافلة سعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها ، وهي وصية الله للأولين والآخرين ، وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا ، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم ، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم »[1] .

وعن أبي ذر جُنْدَب بن جُنَادَة ، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** »[2] . وقوله ﷺ : « **حيثما كنت** » أي : في السر والعلانية ، حيث يراه الناس وحيث لا يرونه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه : « **من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن ، أو**

---

(١) « جامع العلوم والحكم » ص (٢٤٧) باختصار .

(٢) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥) البر ، وقال : هذا حسن صحيح ، وأحمد (٥/ ١٥٨) ، وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » (١٦١٨) .

يعلم من يعمل بهن ؟ » .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : قلت : أنا يا رسول الله . فأخذ بيدي وَعَدَّ خمسًا فقال : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس . وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس . وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا . ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب** »(١) .

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال : « **اتقوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم ؛ تدخلوا جنة ربكم** »(٢) .

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ١٨٣-١٨٤) الزهد ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان . ورواه أحمد (٢/ ٣١٠) ، وابن ماجه (٤٢١٧) الزهد بمعناه ، وحسنه الألباني ، وكذا في تحقيق جامع الأصول .

(٢) رواه الترمذي (٦١١١-تحفة) الصلاة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد (٥/ ٢٥١) ، والحاكم (١/ ٩) وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شيء . وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ؛ فإن روحك في السماء وذكرك في الأرض** » (١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أوصيك بتقوى الله تعالى في سر أمرك وعلانيته . وإذا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ . ولا تسألن أحدًا شيئًا . ولا تقبض أمانة . ولا تقضِ بين اثنين** » (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أوصيك بتقوى الله ، والتكبير على كل شرف** » (٣) .

وكان من دعاء النبي ﷺ : « **اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها** » (٤) .

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٨٢) ، وحسنه الألباني بشاهده وهو في « الصحيحة » رقم (٥٥٥) .

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٨١) ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٤١) .

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٢٥،٣٣١) ، وابن ماجه (٢٧٧١) الوصايا ، والحاكم (١/ ٤٤٥-٤٤٦) ، (٢/ ٩٨) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني في « الصحيحة » (١٧٣٠) : وهو كما قالا إلا أن أسامة بن زيد الليثي فيه كلام يسير حسن الإسناد .

(٤) رواه مسلم (١٧/ ٤١) بزيادة في أوله وآخره ، وأحمد (٤/ ٣٧١) ، (٦/ ٢٠٩) =

٣- التقوى هي وصية جميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام :

قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥-١٠٦] . وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٣-١٢٤] . وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٤١-١٤٢] . وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠-١٦١] . وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٧٦-١٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٠-١١] .

ولا شك أن الرسل هم أزكى البشر ، وأنصح الناس لهم ، فلو علموا أن هناك خصلة للناس أنفع لهم من التقوى لما عدلوا عنها ،

بلفظ : « رب أعط نفسي تقواها » .

فلما أجمعوا عليها بَانَ خَطَرُها وعظيم موقعها وشرفها . نسأل الله أن يجعلنا من أهلها العاملين بها والمتعاونين عليها .

٤- التقوى وصية السلف الصالح رضي الله عنهم :

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : « ولم يزل السلف الصالح يتواصَوْن بها . كان أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته : أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر رضي الله عنه ؛ دعاه فوصاه بوصيته . وأول ما قاله له : اتق الله يا عمر .

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما : أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل ؛ فإنه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده . واجعل التقوى نُصْبَ عينيك ، وجلاء قلبك .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثيب إلا عليها ؛

فإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل . جعلنا الله وإياك من المتقين . ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ﷻ ، فإن تقوى الله ﷻ خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف . وقال رجل ليونس بن عبيد : أوصني . فقال : أوصيك بتقوى الله والإحسان ؛ فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ . وكتب رجل من السلف إلى أخ له : أوصيك بتقوى الله ؛ فإنها من أكرم ما أسررت ، وأزين ما أظهرت ، وأفضل ما ادَّخَرْتَ . أعاننا الله وإياك عليها ، وأوجب لنا ولك ثوابها .

وقال شعبة : كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة ؟ فقال : أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه : « **اتق الله حيثما كنت . وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُهَا ، وخالق الناس بخلق حسن** »[1] .

---

(١) باختصار من « جامع العلوم والحكم » ص (١٥٠-١٥١) . والحديث تقدم تخريجه ص (٢٥) .

وقال ابن القيم رحمه الله : وَدَّعَ ابن عون رجلًا ، فقال : عليك بتقوى الله ؛ فإن المتقي ليست عليه وحشة .

وقال زيد بن أسلم : كان يقال : من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا .

وقال الثوري لابن أبى ذئب : إن اتقيت الله كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئًا [١] .

٥- التقوى أجمل لباس يتزين به العبد :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [الأعراف : ٢٦] . فبعد أن تمنن الله ﷻ على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ـ واللباس ما يستر به العورات ، والريش والرياش ما يتجمل به ، فالأول من الضروريات ، والثاني من **الزيادات** والتكميليات ـ ذَكَّرَهُمْ على أفضل لباس وهو ما يواري **عورات** الظاهر والباطن ويتجمل به ، وهو لباس التقوى .

---

(١) المصدر السابق .

قال القرطبي رحمه الله : « قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ بين أن التقوى خير لباس ، كما قيل [١] :

إذا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثيابًا من التُّقَى
تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كان كَاسِيًا
وَخَيْرُ لِبَاسِ المَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ
وَلا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيًا

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهني قال : لباس التقوى : الحياء . وقال ابن عباس : لباس التقوى هو العمل الصالح . وعنه أيضًا : السمت الحسن في الوجه . وقيل : ما علمه الله ﷻ وهدي به .

ومن قال : إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى ؛ فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى » [٢] .

---

(١) « الفوائد » ص (١٧) ، دار الدعوة الإسكندرية .
(٢) « الجامع لأحكام القرآن » (٣/ ٢٦٢٠-٢٦٢١) باختصار .

٦ - التقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد :

قال الله ﷻ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . قال ابن كثير رحمه الله : « وقوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ؛ أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها ، كما قال تعالى : ﴿ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] . لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدًا على اللباس المعنوي ، وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع . قال عطاء الخراساني في قوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] : يعني زاد الآخرة »[1] .

وقال الزمخشري رحمه الله : « أي اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح ؛ فإن خير الزاد اتقاؤها . وقيل : كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ، ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا ؛ فيكونون كَلًّا على الناس . فنزلت فيهم .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢٣٩) ـ دار المعرفة .

ومعناه : وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام [١] الناس والتثقيل عليهم فإن خير الزاد التقوى . ﴿ وَٱتَّقُونِ ﴾ : وخافوا عقابي . ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يعني : أن قضية اللُّبِّ تقوى الله ، ومن لم يتقه من الأَلِبَّاء فكأنه لا لُبَّ له »[٢] .

٧- أهل التقوى هم أولياء الله ﷻ وهم أكرم الناس :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٣] . وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ١٩] . وقال الله ﷻ مبينًا أنه لا يستحق الولاية إلا أهل هذه المنزلة العَلِيَّة والرتبة السَّنِيَّة ، فقال ﷻ : ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] . وجعل الله ﷻ التقوى هي ميزان الحق الذي يوزن به الناس ، لا ميزان الحسب والنسب والمال والشهرة ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وهذا الميزان كذلك هو ميزان النبي ﷺ .

---

(١) أي : إملالهم وإضجارهم .

(٢) « الكشاف » (١/ ٢٤٤) الريان .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئُل رسول الله ﷺ : من أكرم الناس ؟ قال : « **أتقاهم لله** »[١] .

قال الشنقيطي رحمه الله : « إن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل . ولقد صدق من قال :

فقد رَفَعَ الإسلامُ سَلْمَانَ فارس
وقد وَضَعَ الكُفْرُ الشَّرِيفَ أبا لَهَب

وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول :

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سِواهُ
إذا افْتَخَرُوا بقَيْسٍ أو تَمِيمِ

فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله ، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي ، ولو كان رفيع النسب »[٢] .

٨- ولشرف التقوى أمر الله عز وجل المسلمين بالتعاون عليها ، ونهاهم عن التعاون على ما يخالفها :

قال الله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ** ﴾ [المائدة : ٢] .

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤١٧) أحاديث الأنبياء .

(٢) « أضواء البيان » (٧/ ٦٣٥) باختصار وتصرف .

قال القرطبي رحمه الله : « قال الماوردي : ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى لله ؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى ، وفي البر رضا الناس ، ومن جمع بين رضا الله تعالى وبين رضا الناس ، فقد تمت سعادته وعمت نعمته .

وقال ابن خويز منداد في أحكامه : والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه : فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم ، ويعينهم الغني بماله ، والشجاع بشجاعته في سبيل الله ، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة . قال رسول الله ﷺ : « **المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم** » [١] .

وقال القاسمي رحمه الله : « وفي (الإكليل) استدل المالكية بالآية على بطلان إجارة الإنسان نفسه لحمل خمر ونحوه ، وبيع العنب لعاصره خمرًا ، والسلاح لمن يعصي به ، وأشباه ذلك . انتهى . وهو متجه » [٢] .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٣/ ٢٠٤٤) . والحديث رواه أبو داود (٤٥٠٧) الديات ، وابن ماجه (٢٦٨٣) الحدود ، وصححه الألباني .

(٢) « محاسن التأويل » (٦/ ٢٥) بتصرف .

وقال ابن القيم رحمه الله : « وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم ، فيما بينهم بعضهم بعضًا ، وفيما بينهم وبين ربهم ؛ فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله ، وواجب بينه وبين الخلق ، فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم متعاونًا على مرضاة الله وطاعته ، التي هي غاية العبد وفلاحه ، ولا سعادة له إلا بها ، وهي البر والتقوى ، اللذان هما جماع الدين كله »[1] .

---

(١) « الرسالة التبوكية » ص (١٢) .

كيف تتقي الله ﷻ ؟

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية ، التي لا تقنع بالدون ، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيع العاجز المغبون .

فبعد أن بيَّنا شرف التقوى وتشوقت النفوس إليها قد يقول قائل : بالله عليك كيف أحوز هذه الجوهرة النفيسة ؟ وأصل إلى هذه المرتبة الشريفة ؟ فإن المؤمن إذا رُغِّبَ في الخير رَغِب ، وإذا خُوِّفَ من الشر هرب ، ولا خير فيمن إذا زُجر لا يَنزجر ، وإذا أُمِرَ لا يَأْتمِر .

قال الغزالي ﷺ : « إنما الفضيلة في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية ، وتصونها عن كل فضول ، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك ، وألجمتها بلجام التقوى . ولهذا الباب شرح يطول ، وأما الذي لابد منه هاهنا فأن نقول : من أراد أن يتقي الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول ، وهي : العين ، والأذن ،

واللسان ، والقلب ، والبطن ، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررًا في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال . وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمَرْجُوّ أن يكف سائر أركانه ، ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى »[1] .

فإن قلتَ : كيف لي أن أصون الأعضاء الخمسة عن معصية الله ﷻ ؟ وكيف أقيدها بطاعة الله ؟ فإن هذا لُبُّ السؤال ، وغاية الآمال ، والسبب الموصل إلى رحمة الكبير المتعال . قلتُ : سوف أجمع لك من السطور ما يبين لي ولك الطريق ، والله ولي التوفيق ، وألخص ذلك في خمسة أمور :

١- محبة الله ﷻ محبةً تغلب على قلب العبد ؛ يدع لها كل محبوب ، ويضحي في سبيلها بكل مرغوب .

٢- أن تستشعر في قلبك مراقبة الله ﷻ ، وتستحي منه حق الحياء .

---

(١) « منهاج العابدين » ص (٦٧، ٧٧) باختصار .

٣- أن تعلم ما في سبيل المعاصي والآثام من الشرور والآلام .

٤- أن تعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك .

٥- أن تدرس مكائد الشيطان ومصائده ، وأن تحذر من وساوسه ودسائسه .

١- محبة الله ﷻ

قال ابن القيم رحمه الله : « فالمحبة شجرة في القلب ، عروقها الذل للمحبوب ، وساقها معرفته ، وأغصانها خشيته ، وورقها الحياء منه ، وثمرتها طاعته ، ومادتها التي تسقيها ذكره ، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصًا »[1] .

وقال ابن رجب رحمه الله : « ومحبة الله سبحانه وتعالى على درجتين :

إحداهما : فرض لازم . وهي أن يحب الله سبحانه وتعالى محبةً توجب له محبةَ ما فرضه الله عليه ، وبغض ما حرمه عليه ، ومحبةً لرسوله المبلغ عنه أمره ونهيه ، وتقديمَ محبته على النفوس

---

(١) « روضة المحبين » ص (٤٠٩) دار الصفا .

والأهلين ، والرضا بما بلغه عن الله من الدين ، وتلقي ذلك بالرضا والتسليم ، ومحبة الأنبياء والرسل والمتبعين لهم بإحسان جملة وعمومًا لله ﷻ ، وبغض الكفار والفجار جملة وعمومًا لله ﷻ . وهذا القدر لابد منه في تمام الإيمان الواجب ، ومن أخل بشيء منه فقد نقص من إيمانه الواجب بِحَسَبِ ذلك ، قال الله ﷻ : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] ، وكذلك ينقص من محبته الواجبة بِحَسَبِ ما أخل به من ذلك ؛ فإن المحبة الواجبة تقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات .

الدرجة الثانية : درجة السابقين المقربين . وهي أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه من نوافل الطاعات ، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات ، وإلى الرضا بما يقدره ويقضيه مما يؤلم النفوس من المصائب . وهذا فضل مستحب مندوب إليه . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **يقول الله ﷻ : من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب**

إليَّ عبدي بشيء أحب إليه مما افترضت عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأُعْطِيَنَّه ، ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ؛ يكره الموت ، وأنا أكره مساءته »[1] .

قال ابن القيم رحمه الله : « ولو لم يكن في المحبة إلا أنها تنجي من عذابه ، لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبدًا . وسُئل بعض العلماء : أين تجد في القرآن إن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة : ١٨] »[2] .

---

(١) « استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس » ص (١١-١٥) باختصار . والحديث رواه البخاري (١١/ ٣٤١) الرقاق ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٤) . وانظر طرق الحديث في « الصحيحة » (١٦٤٠) .

(٢) « روضه المحبين » ص (٤١٦) .

الأسباب الجالبة للمحبة :

١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه .

٢- التقرب إلى الله ﷻ بالنوافل بعد الفرائض .

٣- دوام ذكره بالقلب واللسان .

٤- إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

٥- مطالعة أسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ، والتقلب في رياض معانيها .

٦- تذكر نعمه وإحسانه وبره على العبد ؛ فإن القلوب جُبِلَت على محبة من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

٧- الخلوة به وقت النزول الإلهي والإذن العام ؛ عند قوله ﷻ : « **هل من سائل .. هل من تائب .. هل من مستغفر ..** » [١] .

٨- مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم .

---

(١) حديث النزول رواه البخاري (١٣/ ٤٦٤) التوحيد ، ومسلم (٦/ ٣٨-٣٩) ، والترمذي (١٣/ ٣٠) الدعوات ، وأبو داود (١٣٠١) الصلاة .

٩- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله من الشهوات والشبهات .

١٠- التفكر في مصنوعاته الدالة على كماله ؛ فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال . وكان السلف يفضلون التفكر على عبادة البدن .

١١- تذكر ما ورد في الكتاب والسنة من رؤية أهل الجنة لربهم ، وزيارتهم له ، واجتماعهم يوم المزيد .

ولا شك في أن الاشتغال بهذه الأسباب الجالبة للمحبة مما يشغل القلب بطاعة الله ، ويبعده عن معصيته ، ثم إذا كملت المحبة فإن المحب لا يعصي محبوبه كما قيل :

تعصي الإله وأنت تَزْعُمُ حُبَّهُ
هذا لَعَمْري في القياس شَنِيعُ
لو كان حُبُّكَ صادقًا لأطعتَهُ
إن المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

وإذا فتح للعبد هذا الباب الشريف ، ودخل هذه القصر المنيف ؛ فإنه تحبب إليه الطاعات ، ويجد فيها منتهى راحته

وسعادته . قال النبي ﷺ : « **وجعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة** » (١) .
وكان يصلي حتى تَرِم ساقاه وتشقق قدماه ، فيقال له في ذلك فيقول ﷺ : « **أفلا أكون عبدًا شكورًا** » (٢) .

فمحبة الله ﷻ من أعظم أسباب التقوى ، كما قال القائل :

وكُن لربك ذا حُبٍّ لِتَخْدِمَهُ
إن المحبين للأحباب خُدَّامُ

فإن المحب يُسَرُّ بخدمة محبوبه وطاعته ، ولا تطاوعه نفسه على معصيته ، كما قال بعض الصالحين : « إني لا أحسن أن أعصي الله » . أي أن جوارحه لا تأتي معه في المعصية ؛ لمحبتها للطاعات ، وبغضها للمعاصي ، كما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيَّها فقالت لهم : « تعودا حب الله وطاعته ، فإن المتقين أَلِفَتْ جوارحهم الطاعة فاستوحشت من غيرها ، فإذا

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٨) ، والنسائي (٧/ ٦١) عشرة النساء ، والحاكم (٢/ ١٦٠) النكاح ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٨٠٩) .

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٤) التهجد : موصولًا عن المغيرة ، وبمعناه معلقًا عن عائشة ، وابن ماجه (١٤١٩) .

أمرهم الملعون بمعصية ؛ مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون » .

فنسأل الله الغني الكريم أن يمن علينا بمحبته وأن يوفقنا لأسباب فضله ورحمته .

٢- ومما يعين على تقوى الله ﷻ

أن يدرب العبد نفسه على المراقبة ، وأن يستشعر اطلاع الله ﷻ عليه؛ فيستحي عند ذلك من المعصية ، ويجتهد في الطاعة

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

قال ابن كثير رحمه الله : « أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفاز ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم »[١] .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٣٠٤) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] .

قال الشنقيطي رحمه الله : « يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يخفى عليه شيء ، وأن السر كالعلانية عنده ، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر ، وما يُعْلَن وما يُسَرّ . والآيات المبينة لهذا كثيرة جدًا ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] . وقوله ﷻ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] . وقوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٧] . وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . [يونس : ٦١] . ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى » . ثم قال تحت عنوان : (تنبية هام) :

« اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض

واعظًا أكبر ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن ؛ من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه ، رقيب عليهم ، ليس بغائب عما يفعلون . وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلًا ليصير به كالمحسوس فقالوا : لو فرضنا أن ملكًا فَتَّالًا للرجال سفاكًا للدماء ، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا ، وسَيَّافُه قائم على رأسه ، والنطع مبسوط للقتل ، والسيف يقطر دمًا ، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جوارية وأزواجه وبناته ؛ فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه ، وهو ينظر إليه ، عالم بأنه مطلع عليه ؟ لا وكلا ، بل جميع الحاضرين يكونون خائفين ، وَجِلَةٌ قلوبهم ، خاشعة عيونهم ، ساكنة جوارحهم ، خوفًا من بطش ذلك الملك .

ولا شك ـ ولله المثل الأعلى ـ أن رب السماوات والأرض ـ جَلَّ وعلا ـ أشدُّ عليًا ، وأعظمُ مراقبة ، وأشدُّ بطشًا ، وأعظمُ نكالًا وعقوبة من ذلك الملك ، وحِمَاه في أرضه محارمه . فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه ـ جَلَّ وعلا ـ ليس بغائب عنه ،

وأنه مطلع على ما يقول وما يفعل وما ينوي ؛ لَانَ قلبه ، وخشي الله تعالى ، وأحسن عمله لله ـ جَلَّ وعلا ـ »[١] .

وقد دلت الأحاديث الشريفة على ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات من وجوب مراقبة الله تعالى ، والاستحياء منه حق الحياء .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **استحيوا من الله حق الحياء . من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبِلا . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء** »[٢] .

قال المناوي في الفيض : « **استحيوا من الله حق الحياء** » بترك الشهوات والنهمات ، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة ؛ فعندها تطهر الأخلاق ، وتشرق أنوار الأسماء في صدر العبد ، ويقرر علمه بالله ؛ فيعيش غنيًّا بالله ما عاش .

---

(١) « أضواء البيان » (٣/ ٩-١٠) .

(٢) رواه الترمذي (٩/ ٢٨١) القيامة ، والحاكم (٤/ ٣٢٣) الرقاق ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني .

قال البيضاوي : ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه ، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من فعل وقول .

وقال سفيان بن عيينة : الحياء أخف التقوى ، ولا يخاف العبد حتى يستحي . وهل دخل أهل التقوى إلا من الحياء ؟

« **من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس** » أي رأسه ، « **وما وعى** » : ما جمعه من الحواس الظاهرة والباطنة ، حتى لا يستعملها إلا فيما يحل ، « **وليحفظ البطن وما حوى** » أي : وما جمعه الجوف باتصاله به من القلب والفرج واليدين والرجلين ، فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف ، فلا يستعمل منها شيئًا في معصية الله ، فإن الله ناظر في الأحوال كلها إلى العبد لا يواريه شيء [١] . اهـ .

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت** » [٢] .

---

(١) « فيض القدير » (١/ ٤٨٨) .

(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (١٢-١٣) ، والضياء في « المختارة » (١/ ٤٤٩) . قال الألباني : والإسناد ضعيف . قال : ثم وجدت للحديث شاهدًا =

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء ؛ فيجعلها الله هباء منثورًا . أما إنهم إخوانكم ، ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها** » [١] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاث مهلكات وثلاث منجيات** » . فقال : « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، والعدل في الغضب والرضا** » [٢] .

مرسلًا في « جامع ابن وهب » ص (٦٥) ؛ فالحديث به حسن إن شاء الله . انظر : « الصحيحة » (١٠٥٥) .

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥) الزهد ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٥٠٥) .

(٢) رواه البزار برقم (٨٠) ، والعقيلي ص (٣٥٢) ، وأبو بكر الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » والسياق له ، وأبو نعيم (٢/ ٣٤٣) . وله طرق هو بمجموعها حسن . باختصار من « الصحيحة » (١٨٠٢) .

قال المناوي : « قَدَّمَ السر لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن ؛ لما يخاف من شوب رؤية الناس . وهذه درجة المراقبة . وخشيته فيها تمنع من ارتكاب كل منهي ، وتحثه على فعل كل مأمور ، فإن حصل للعبد غفلة عن ملاحظة خوفه وتقواه فارتكب مخالفة مولاه ؛ لجأ إلى التوبة ، ثم داوم الخشية »[١] .

وسئل النبي ﷺ عن الإحسان في الحديث المسمى بأم السنة فقال ﷺ : « **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[٢] .

قال النووي رحمه الله : « هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ ، لأنا لو قدرنا أن أحدًا قام في عبادة وهو يعاين ربه ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به ، فقال ﷺ اعبد الله في جميع

---

(١) « فيض القدير » (٣/ ٣٠٧) .

(٢) رواه البخاري (١/ ١١٤) ، مسلم (١/ ١٥٧-١٥٨) الإيمان ، والترمذي (١٠/ ٧٧-٧٨) الإيمان ، وأبو داود (٤٦٧٠) السنة ، والنسائي (٨/ ٩٧) الإيمان .

أحوالك كعبادتك في حال العيان ؛ فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه ، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه .

وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد ؛ فينبغي أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه ـ تبارك وتعالى ـ في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك . وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسه الصالحين ليكون ذلك مانعًا من تلبسه بشيء من النقائص احترامًا لهم واستحياءً منهم ، فكيف بمن لا يزال الله مطلعًا عليه في سره وعلانيته »[1] .

وقال ابن رجب رحمه الله : « يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة وهو استحضار قربه ، وأنه بين يديه كأنه يراه ، وذلك يوجب الخشية والهيبة والتعظيم ، كما جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : « **أن تخشى الله كأنك تراه** » ، ويوجب أيضًا النصح في العبادة ، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها .

---

(١) « شرح النووي على صحيح مسلم » (١/ ١٥٧-١٥٨) .

وقد وصى النبي ﷺ جماعة من الصحابة بهذه الوصية .

وقوله ﷺ : « **فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » ، قيل : إنه تعليل للأول ؛ فإن العبد إذا أُمِرَ بمراقبة الله تعالى في العبادة ، واستحضار قربه من عبده حتى كأن العبد يراه ؛ فإنه قد يشق عليه ذلك ، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ، ولا يخفى عليه شيء من أمره ، فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني ، وهو دوام التحقق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه . وقيل : بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه ؛ فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه ، فليستحي من نظره إليه ، كما قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك . وقال بعضهم : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحي من الله على قدر قربه منك »[1] .

وصفوة الكلام أن يقال : مما يعين على التقوى التدرب على مراقبة الله ﷻ وإحساس القلب بقربه وإطلاعه ؛ فيستحي العبد

---

(١) « جامع العلوم والحكم » ص (٣٣-٣٤) باختصار .

عند ذلك من المعصية ، ويبذل جهده في أداء الطاعة على أحسن وجوهها . وهذه بعض الآثار في تقرير هذا المعنى :

ذكر عن أعرابي قال : خرجت في بعض ليالي الظُّلَم ، فإذا أنا بجارية كأنها عَلَمٌ [1] ، فأردتها عن نفسها ؛ فقالت : ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل إذا لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله ما يرانا إلا الكواكب . فقالت : أين مُكَوكِبُها ؟

وسئل الجُنَيْد : بم يستعان على غض البصر ؟ قال : بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره .

وقال الحارث المحاسبي : المراقبة علم القلب بقرب الرب .

وكان الإمام أحمد ينشد :

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يومًا فلا تَقُلْ
خَلَوْتُ ، ولكن قُلْ عَلَيَّ رقيبُ
ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ ساعةً
ولا أنَّ ما تخفي عليه يَغِيبُ

---

(١) علم : أي جبل .

٣- ومما يعين على التقوى معرفة ما في سبيل الحرام من المفاسد والآلام

فليس في الدنيا والآخرة شرٌ وداءٌ إلا وسببه الذنوب والمعاصي .

قال ابن القيم رحمه الله : « فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء ، وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه ؛ فجُعلت صورته أقبح صورة وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ، وبُدِّلَ بالقرب بُعْدًا ، وبالرحمة لعنة ، وبالجنة نارًا تَلَظَّى ، فهان على الله غاية الهوان ، وسقط من عينه غاية السقوط ، فصار قَوَّادًا لكل فاسق ومجرم ، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة ؟ فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك ، وارتكاب نهيك . وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟ وما الذي سَلَّطَ الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على سطح الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ودمرت ما مرت

عليه من ديارهم وحروثهم ؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعهم حجارة من سجيل ؛ فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد ؟ وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظُّلَلِ ، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تَلَظَّى ؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم ؛ فالأجساد للغرق والأرواح للحرق ؟ وما الذي أهلك القرون من بعد نوح ودَمَّرها تدميرًا ؟ »[1] .

ثم ذكر ﷺ آثار الذنوب والمعاصي ، فلتراجع فإنها مفيدة جدًا في الزجر عن معصية الله والمباعدة عنها ، **وهي التقوى** المقصودة ، والدرة المفقودة . نسأل الله السلامة ، **ونعوذ به من** الحسرة والندامة . فحقيق بكل عاقل أن لا **يسلك طريقًا حتى** يعلم سلامتها وآفاتها ، وما توصل إليه من سلامة **أو عطب** .

---

(١) « الجواب الكافي » باختصار ص (٤٢-٤٣) دار عمر بن الخطاب .

ولا شك أن سبيل المعاصي فيه من التعرض للعذاب العاجل والآجل ، وضيق الصدر والرزق ، وبغض الخلق ، ومحق البركة ؛ فهي كطعام لذيذ مسموم يتمتع به لحظات ، وتبقى آلامه في الحياة وبعد الممات ، كما قال القائل :

تفنى اللذاذة ممن نال لَذَّتَها
من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ من مَغَبَّتِها
لا خَيْرَ في لذةٍ من بعدها النارُ

٤- ومما يعين على التقوى أن تتعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك

قال الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله : « إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بالله ، فإذا لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال ، فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم بها الناس ، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبت إلى حيوان »[1] .

---

(١) « علمتني الحياة » ص (٣٢) ، نقلًا عن هامش « رسالة المسترشدين » للمحاسبي ص (١٦٠) بتحقيق وتعليق عبد الفتاح أبو غدة .

وقال ابن القيم رحمه الله : « وملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه ، والتقرب إليه بأنواع الوسائل ، والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه . فإن لم يكن للعبد همة على ذلك ؛ فالرغبة في الجنة ونعميها وما أعد الله فيها لأوليائه . فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك ؛ فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه . فإن لم تطاوعه نفسه لشيء من ذلك ؛ فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم . ولا يقدر على ذلك ـ بعد قدر الله وتوفيقه ـ إلا بمخالفة هواه ؛ فلم يجعل الله طريقًا إلى الجنة غير مخالفته ، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته . قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٧-٤١] . وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] . قيل : هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ، ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر الله ﷻ أن اتباع الهوى يضل عن سبيله ، فقال الله تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ

بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] » (١) .

« وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين ، فقال الله ﷻ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

وجعل سبحانه المتبع قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاء به الرسول ﷺ ، وإما الهوى ؛ فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر » (٢) .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : « الحذرَ الحذرَ من المعاصي فإنها سيئة العواقب ، والحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات ؛ فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه . ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة . فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها ؛ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه عِلْمُه بتحريمها ، وحَذَرُه من عقوبتها ، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي ـ وهو الله ـ فَيَتَنَغَّص

(١) « روضة المحبين » ص (٤٠١-٤٠٢) باختصار .
(٢) المصدر السابق ص (٤٠٤) .

عيشه في حال التذاذه ، فإن غلبه سُكْرُ الهوى كان القلب متنغصًا بهذه المراقبات وإن كان الطبع في شهوته ؛ فما هي إلا لحظة ثم خزيٌ دائمٌ ، وندمٌ ملازم ، وبكاءٌ متواصل ، وأسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى لو تيقن العفو وَقَفَ بإزائه حَذَرُ العتاب . فأُفٌّ للذنوب ! ما أقبح آثارها ! وأسوأ أخبارها ! ولا كانت شهوة تنال إلا بمقدار قوة الغفلة »[1] .

وقال ابن القيم رحمه الله : « واعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة . فإن الشهوة إما أن توجب ألمًا وعقوبة ، وإما أن تقطع لذة أكمل منها ، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرةٌ وندامةٌ ، وإما أن تثلم عِرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه ، وإما أن تذهب مالًا بقاؤه خير من ذهابه ، وإما أن تضع قدرًا قيامه خير من وضعه ، وإما أن تسلب نعمةً بقاؤها أَلَذُّ وأطيب من قضاء الشهوة »[2] .

---

(١) « صيد الخاطر » ص (١٢٩) بتصرف .

(٢) « الفوائد » ص (١٨٢-١٨٣) دار الدعوة .

وخلاصة هذا الفصل أن للناس في ترك المعاصي والتورع عنها دوافعَ متعددة :

* منهم من يدفعه عن المعصية محبة الله ﷻ وإجلاله أن يخالف أمره ويرتكب نهيه ، كما قال بعضهم : وددت أن جلدي قرض بالمقارض وأن هؤلاء الخلق أطاعوا الله ﷻ . وهذه أعلى مراتب الخشية وأغلى دوافع التقوى .

* ومن الناس من يدفعه عن المعصية الرغبة في دار القرار وما فيها من نعيم مقيم للأبرار .

قال النبي ﷺ : « **من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب** »[1] .

فالتمتع بالحرام في دار الفناء سبب للحرمان من النعيم المقيم في دار البقاء ؛ فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من صومه عنها إذا لقي الله ﷻ .

---

(١) رواه مسلم (١٣/ ١٧٣) الأشربة ، بهذا اللفظ ، والبخاري (١٠/ ٣٠) الأشربة ، ومالك في « الموطأ » (٢/ ٨٤٦) الأشربة ، وأبو داود (٣٦٦٢) الأشربة ، والترمذي (٨/ ٤٨) الأشربة ، والنسائي (٨/ ٣١٨) الأشربة .

قال بعضهم :

انــت في دارِ شَــتَاتٍ	**فَتَأهَّــبْ لِشَــتَاتِك**
واجعـل الـدنيا كيـومٍ	**صُمْتَه عـن شَهَوَاتِك**
واجعـل الفطـر عنـد	**الله في يـوم وفاتــك**

قال الخطابي : « معناه لم يدخل الجنة ؛ لأن الخمر من شراب أهل الجنة »(١) .

وقال النووي : « معناه أنه يحرم شربها في الجنة وإن دخلها ، فإنها من فاخر شراب الجنة فيمنعها هذا العاصي بشربها في الدنيا . وقيل : إنه ينسى شهوتها لأن الجنة فيها كل ما يُشتهى . وقيل : لا يشتهيها وإن ذكرها ، ويكون هذا نقص نعيم في حقه تمييزًا بينه وبين تارك شربها »(٢) .

* ومنهم من يتركها خوفًا من النار ، واتقاء غضب الجبار .

قال بعضهم :

---

(١) « جامع الأصول » (٥/ ٩٩) .

(٢) « النووي على صحيح مسلم » (١٣/ ١٧٣) .

إذا ما هَمَمْنَا صَدَّنا وَازِعُ التُّقَى
فَوَلَّى على أَعْقَابِه الهَمُّ خاسِئا

وقال آخر :

لا خير فيمن لا يُراقِبُ رَبَّهُ
عند الهوى ، ويخافُهُ إيمانا
حجب التُّقَى سُبُلَ الهوى ، فأخو التُّقَى
يَخْشَى إذا وافَى المَعَادَ هَوانا

* ومنهم من يتركها خوف العار والشنار [1] ، واستبقاءً للحياء والوقار ، كما قال بعضهم :

ما إن دعاني الهوى لفاحشة
إلا نهاني الحياءُ والكَرَمُ
فلا إلى فاحِشٍ مددْتُ يَدِي
ولا مَشَتْ بي لريبَةٍ قَدَمُ

* ومنهم من يترك المعصية لما يعقبها من شرور ومصائب وآلام ، كما قال بعضهم :

---

(١) الشنار : هو أقبح العيب .

وكَمْ مِنْ مَعَاصٍ نَال منهن لَذَّةً
ومـات فَخَلاَّهـا وذَاقَ الـدَّواهِيَا

تَصَرَّمُ لـذَّاتُ المعاصـي وتَنْقَضِـي
وتبقى تباعات المعاصي كما هِيَا

فيـا سَـوْءَتَا واللهُ رَاءٍ وسـامعٌ
لِعَبْـدٍ بِعَـيْنِ اللهِ يَغْشَـى المعاصِـيَا

* ومنهم من يحمله على ترك المعاصي لذة العفة والاستعلاء عن اتباع الهوى ؛ فإن لذلك حلاوة في القلوب لا يعرفها إلا من ذاقها ، كما قال بعضهم :

وإنـي لَمُشْـتاقٌ إلى كـل غايـةٍ
مـن المجـد يَكْبُـو دُونَهَا الْمُتَطَـاوِلُ

بَـذُولٌ لمالي حين يبخل ذو النُّهَى
عفيفٌ عن الفحشاء قَرْمٌ حَلاحِلُ[1]

* ومنهم من يتركها لأنها تنافي المروءة والشهامة ، كما قال عنترة ـ وهو من شعراء العصر الجاهلي لم يسمع قول الله ﷻ :

---

(١) القرم : السيد المعظم . والحلاحل : السيد في عشيرته .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ـ .

وأَغُضُّ طَرْفِي إن بَدَتْ لي جَارَتِي
حتى يوارِي جارتي مَأْوَاهَا

* ومنهم من يتركها استحياءً من الناس ولا يخشى الله ﷻ .

وهذه أدنى المراتب ، كما قال بعضهم :

لم يكن شاني العفافُ ولكنْ
كنتُ خِلاً لزوجها فاستحييت

٥- ومما يعين على تقوى الله ﷻ معرفة مكائد الشيطان ومصائده ، والحذر من وساوسه ودسائسه

قال العلامة ابن مفلح المقدسي رحمه الله : « اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات : عقبة الكفر ، فإن سلم منه ففي عقبة البدعة ، ثم في عقبة فعل الكبائر ، ثم في عقبة فعل الصغائر ، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المباحات فيشغله بها عن الطاعات ، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة ، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة ، ولا يسلم منها المؤمن ؛ إذ لو سلم منها أحد لسلم منها رسول الله ﷺ ،

وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى »[١] .

فلا شك في أن معرفة العقبات التي يقف عندها الشيطان ، ومعرفة مداخله إلى قلب ابن آدم مما يعين على الحذر منه . وأولى من ذلك بالذكر أن تعرف أن الشيطان عدو لبني آدم فلا يمكن أن يأمره بخير أو ينهاه عن شر .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور : ٢١] .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : « إنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه . ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم ، وجهلهم وعلمهم . واعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب ، وفيه ثُلَم[٢] ، وساكنه

---

(١) « مصائب الإنسان من مكائد الشيطان » ص (٦٩) باختصار . وذكر ابن القيم رحمه الله هذه العقبات السبع في تفسير المعوذتين بأطول من ذلك ، فليراجعه من أراد زيادة التفصيل ص (٧٣-٧٦) .

(٢) جمع ثُلْمَة . وهي موضع الكسر من القدح .

العقل ، والملائكة تتردد إلى الحصن ، وإلى جانبه رَبَضٌ [١] فيه الهوى ، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحارس قائم بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثُّلَم . فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وُكِّلَ بحفظه وجميع الثلم ، وأن لا يَفْتُرَ عن الحراسة لحظة فإن العدو ما يفتر . قال رجل للحسن البصري : أينام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة . وهذا الحصن مستنير بالذكر ، مشرق بالإيمان ، وفيه مرآه صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمر به . فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان ؛ فَتَسْوَدّ حيطان الحصن وتصدأ المرآة . وكمال الفكر يرد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة . وللعدو حملات ؛ فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعاث [٢] ، وربما أقام لغفلة الحارس ، وربما ركدت الريح الطاردة للدخان فَتَسْوَدّ حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدرى

(١) المكان الذي يؤوى إليه .
(٢) عَاثَ : أي أَفْسَدَ .

به ، وربما جُرِحَ الحارس لغفلته وأُسِرَ واستُخْدِم »[١] .

واعلم أن أول ما يُغْوِي به الشيطان ابن آدم الوساوس التي يوسوس بها إليه ، كما قال تعالى آمرًا بالاستعاذة بالله ﷻ من وساوسه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الناس] .

فإذا غفل القلب عن ذكر الله ﷻ جَثَمَ عليه الشيطان وأخذ يوسوس إليه بالذنوب والمعاصي ، فإذا ذكر الله ﷻ واستعاذ به انخنس الشيطان وانقبض . وإذا كره ما وسوس به فإن ذلك محض الإيمان . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : « **وقد وجدتموه ؟** » . قالوا : نعم . قال : « **ذلك صَرِيحُ الإيمان** »[٢] .

---

(١) « تلبيس إبليس » ص (٣٧-٣٨) باختصار - مكتبة المتنبي .

(٢) رواه مسلم (١/ ١٥٣) الإيمان . قال النووي رحمه الله : « معناه : استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ؛ فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به - فضلا عن اعتقاده - إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محققًا ، وانتفت عنه الريبة والشكوك » .
=

قال ابن القيم رحمه الله : « الوسوسة هي مبادئ الإرادة ؛ فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويُمَنِّيه ويُشَهِّيه فيصير شهوة . ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فتصير إرادة . ثم لا يزال يمثل ويخيل ويُمَنِّي ويُشَهِّي ، وينسي علمه بضررها ، ويطوي عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة . فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود في الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا ، فإن فتروا حركهم ، وإن وَنَوْا أزعجهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣] . أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا ، كلما فتروا أو وَنَوْا أزعجتهم الشياطين وأزَّتهم وأثارتهم ، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة . فأصل كل

« النووي على صحيح مسلم » (١/ ١٥٤) .

معصية وبلاء إنما هو الوسوسة »[(١)] .

فمهما كان العبد مشغولًا بالطاعات وذكر الله ﷻ فإنه لا يكون عند ذلك محلًا للوساوس ، فإذا غفل عن الذكر والطاعة وسوس إليه الشيطان بالمعاصي ، كما قال ابن القيم رحمه الله : « إذا غفل القلب ساعة عن ذكر الله جثم عليه الشيطان وأخذ يَعِدُهُ ويُمَنِّيه » .

وأختم هذا الفصل بما يستعان به من طاعة الرحمن الرحيم ؛ حتى يحفظ العبد نفسه من وساوس الشياطين :

١ - الاستعاذة بالله . قال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] .

وعن سليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَّان ، فأحدهما احْمَرَّ وجهه وانتفخت أوداجه . فقال النبي ﷺ : « **إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد . لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ذهب عنه ما يجد** » الحديث[(٢)] .

(١) « تفسير المعوذتين » لابن القيم ص (٧١) باختصار وتصرف ـ السلفية .

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٥١٨-٥١٩) الأدب ، ومسلم (١٦/ ١٦٣) البر والصلة ،
=

٢- **قراءة المعوذات** . فقد قال النبي ﷺ : « **لم يتعوذ الناس بمثلهن** » [١] .

٣- **قراءة آية الكرسي عند النوم** كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « **فمن قرأها عند نومه لا يزال عليه من الله حافظ ؛ فلا يقربه شيطان** » .

٤- **قراءة سورة البقرة** . قال النبي ﷺ : « **إن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان** » [٢] .

٥- **خاتمة سورة البقرة** . عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه

وأبو داود (٤٧٥٩) الأدب . قال ابن كثير رحمه الله : « من لطائف الاستعاذة أنها طهارة الفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، وتطييب له وهو لتلاوة القرآن ، وهي استعانة بالله ﷻ واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطن الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ، ولا يقبل ممانعة ، ولا يُدَارَى بإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان ، كما دلت على ذلك آيات من القرآن » . (١/ ٥٠) التفسير .

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٥١) الاستعاذة ، وأحمد بمعناه (٣/ ٤١٧) ، وصححه الألباني .

(٢) رواه مسلم (٦/ ٦٨) صلاة المسافرين ، بلفظ : « **إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة** » ، والترمذي (١١/ ١٠) ثواب القرآن ، بلفظه .

قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه** »[١] .

٦- « **لا إله الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير** » مائة مرة . من قرأها في يوم كانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي .

٧- **كثرة ذكر الله** ﷻ . فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله ﷻ .

٨- **الوضوء والصلاة** . قال ابن القيم : وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه .

٩- **إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس** . فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة[٢] .

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٥٠) فضائل القرآن ، ومسلم (٦/ ٩١-٩٢) صلاة المسافرين ، والترمذي (١٠/ ١٢) ثواب القرآن ، وأبو داود (١٣٨٤) الصلاة .

(٢) « تفسير المعوذتين » باختصار ص (٨٢-٨٦) ، وانظر : « البحر الرائق » للمصنف .

صفات المتقين

وبعد أن ذكرنا معنى التقوى وشرفها وطريق الوصول إليها ؛ نرى من المفيد كذلك أن نتعرف على أصحاب هذه الرتب العَلِيَّة ، والدرجات السَّنِيَّة ؛ حتى لا تَدَّعيها النفوس وهي عارية عنها ، وقد يكون العلم بها مما يشحذ الهمم في طلبها ، وبذل نفائس الأنفاس في خطبتها وقِرانها .

يقول ابن القيم رحمه الله : « وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولًا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة ، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها . وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ؛ ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة :

* منها أن لا يزال المتخلف المسكين مزريًا على نفسه ذامًا لها .

* ومنها أن لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى ذليلًا له حقيرًا ، يشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين ، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين .

* ومنها أنه عساه أن تنهض همته يومًا إلى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد .

* ومنها أنه لعله أن يصدق في الرغبة واللُّجْأ إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويُهَيِّئَهُ لأعمالهم ؛ فيصادف ساعة إجابة لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه .

* ومنها أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد ، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه . وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة ، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة . فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله ؛ فليبشر بالخير فقد أُهِّلَ له ، فليقل لنفسه : يا نفس فقد حصل لك شطر فاحرصي على الشطر الآخر .

* ومنها أن العلم بكل حال خيرٌ من الجهل .

* ومنها أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه فلابد أن ينال منه بِحَسَبِ استعداده ولو لحظة ، ولو بارقة ، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه .

* ومنها أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده ، والله لا يضيع مثقال ذرة ، فعسى أن يرحم بذلك العالم .

وإياك أن تظن أنك بمجرد علم هذا الشأن صرت من أهله ، هيهات ، ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل ، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل . فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل ، فإن وجدت من نفسك حركة وهمة إلى التشبه بهم فاحمد الله وادخل ، فالطريق واضحٌ والباب مفتوح .

إذا أَعْجَبَتْكَ خِصالُ امرئٍ
فَكُنْهُ تَكُنْ مِثْلَ ما يُعْجِبُكْ
فليس على الجُودِ والمَكْرُماتِ
إذا جِئْتَها حَاجِبٌ يحجبكْ [1]

---

(١) « طريق الهجرتين » ص (٢٠٥-٢٠٦) باختصار .

١- فمن صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب إيمانًا جازمًا .

والغيب هو ما غاب عن حواسنا مما أخبرنا الله ﷻ بوجوده أو أخبرنا به رسوله ﷺ ؛ كالإيمان بالله وملائكته والإيمان بالآخرة . ولاشك أن هذه الصفة أخص صفاتهم ؛ فإنها التي تدعوهم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والانقياد الكامل لأمر الله ﷻ ونهيه . وهذه الصفة هي أول صفة وصفهم الله ﷻ بها في كتابه . قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ٢-٤] . ومدحهم الله ﷻ كذلك في هذه الآيات الكريمات بأنهم أهل الهداية الحقيقية بالقرآن .

قال القاسمي : « قال الناصر في الانتصاف : **الهدى يطلق** في القرآن على معنيين :

أحدهما : الإرشاد وإيضاح سبيل الحق ، ومنه **قوله تعالى :** ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] .

وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رُشْدَ إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أو لا .

والآخر : خَلْق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد ، ومنه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعًا .

وعلى الأول فتخصيص الهدى بالمتقين للتنويه بمدحهم ؛ حتى يتبين أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] . وقد كان النبي ﷺ منذرًا لكل الناس ، فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره . وهذه الآية نظير آية : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [1] [فصلت : ٤٤] » .

---

(١) « محاسن التأويل » (٢/ ٣٤) دار الفكر - بيروت .

٢- ومن صفاتهم أنهم يعفون ويصفحون .

كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وقد قال ﷻ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] . فأخبر الله ﷻ أن من اتصف بهذه الصفة فأجره في ذلك على الله ﷻ . كما رغبهم الله ﷻ في مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال ﷻ في سورة النور : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] . وقال تعالى في وصف المتقين : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

قال العلامة محمد رشيد رضا : « قال الراغب : الغيظ أشد الغضب ، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه . وفي روح المعاني : أن الغيظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر . والفرق بينه وبين الغضب على ما قيل : أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة ، ولا كذلك الغيظ .

وقال الزمخشري : كظم الغيظ هو أن يمسك ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرًا . ويُروى عن عائشة ﵂ أن خادمًا

لها غاظها فقالت : لله دَرُّ التقوى ما تركت لذي غَيْظٍ شفاء .

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] : العفو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها . وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قَلَّ من يَتَبَوَّأها ، فالعفو مرتبة قبل مرتبة كظم الغيظ ، إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة .

وهناك مرتبة أعلى منها ، وهي ما أفاده قوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] . فالإحسان وصف من أوصاف المتقين . ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزًا له بكونه محبوبًا عند الله تعالى . ويروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظًا شديدًا فَهَمَّ بالانتقام منه ، فقال الغلام : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ . فقال : كظمت غيظي . قال الغلام : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ . قال : عفوت عنك . قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . قال : اذهب فأنت حر لوجه الله . فهذه الواقعة تبين لك ترتيب المراتب الثلاثة »[1] .

---

(١) « تفسير المنار » باختصار (٤/ ١٣٤-١٣٥) .

٣- ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عَصَمَهُ الله ﷻ من الأنبياء ، غير أنهم لا يقارفون الكبائر ، ولا يصرون على الصغائر .

بل كلما وقعوا في صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح ؛ عملًا بقول النبي ﷺ : « **وأتبع السيئة الحسنة تمحها** » (١) . ودل على هذه الصفة قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

قال ابن كثير رحمه الله : « يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر ؛ أنهم ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أي : أصابهم ، ﴿ طيفٌ ﴾ ، وقرأ الآخرون ﴿ طَٰٓئِفٌ ﴾ ، وقد جاء فيه حديث ، وهما قراءتان مشهورتان ، فقيل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسره

(١) تقدم تخريجه .

بالهَمِّ بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب . وقوله : ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ أي : عقاب الله ﷻ ، وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ؛ فتابوا وأنابوا ورجعوا إليه من قريب . ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أي : قد استقاموا وصَحَوْا مما كانوا فيه »[1] .

ثم ذكر الله ﷻ ما يقابل هذه الصفة في المتقين بقوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٢] .

قال العلامة رشيد رضا رحمه الله : « شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لِحَمْلِهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم ، وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد ؛ تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا . وإن زَلُّوا تابوا وأنابوا . وأن إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين تتمكن الشياطين من إهوائهم فيمدونهم في غيهم وفسادهم ؛ لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم بالنزوع إلى الشر والباطل والفساد في الأرض ، ولا يستعيذون منه بالله ، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطانًا

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٢/ ٢٧٩) .

من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر . ثم لا يُقْصِرُون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم ؛ لذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ الديني »[1] .

٤- ومن صفاتهم أنهم يتحرون الصدق فهم أصدق الناس إيمانًا وأصدقهم أقوالاً وأفعالاً وأعمالاً ، وهم الذين صَدَّقوا المرسلين .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] . قيل : الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ . وقيل : جبريل عليه السلام . وقال مجاهد : أصحاب القرآن المؤمنون ؛ يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا .

قال ابن كثير : « وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به . والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير ؛ فإنه جاء بالصدق

---

(١) « تفسير المنار » (٩/ ٥٥٠) بتصرف .

وصدق المرسلين ، وآمن ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ » (١) . وقال تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

قال القاسمي : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ في إيمانهم ؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فلم تغيرهم الأحوال ، ولم تزلزهم الأهوال . وفيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعواه الإيمان . ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل . وتكرير الإشارة لزيادة تنويه بشأنهم ، وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم » (٢) . وقد رغب النبي ﷺ في هذه الخصلة النبيلة والرتبة الجليلة فقال ﷺ : « **وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا** » (٣) .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٥٣) .

(٢) « تفسير القاسمي » (٣/ ٥٤) .

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٥٠٧) الأدب ، ومسلم (١٦/ ١٦٠) البر والصلة ، وأبو داود (٤٩٦٨) الأدب ، وابن ماجه (٤٦) المقدمة ، بزيادة في أوله . واللفظ لمسلم .

٥- ومن صفاتهم أنهم يعظمون شعائر الله ﷻ

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] .

قال القرطبي رحمه الله : « قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ : الشعائر جمع شعيرة ، وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعَرَ به وأعلم ، ومنه شِعار القوم في الحرب ، أي : علامتهم التي يتعارفون بها ، ومنه إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهي تسمى شعيرة بمعنى المشعورة . فشعائر الإسلام أعلام دينه ، لا سيما ما يتعلق بالمناسك . وقال قوم : المراد هنا تسمين البُدْن والاهتمام بأمرها ، والمغالاة بها . قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة . وفيه إشارة لطيفة ؛ وذلك أن أصل شراء البدن ربما يحمل على فعل ما لابد منه فلا يدل على الإخلاص ، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بما دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من تقوى القلوب . والله أعلم .

وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب ،

ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح : « **التقوى ها هنا** » . وأشار إلى صدره »[١] .

فالمتقون يعظمون طاعة الله وأمره فيدفعهم ذلك إلى طاعته ، ويعظمون كذلك ما نهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معصيته . وعكس ذلك الاستهانة بالأوامر فلا يؤديها ، وبالنواهي فيقع فيها . نسأل الله السلامة .

قال أنس رضي الله عنه : « إنكم لتعملون أعمالًا هي أدَقُّ في أعينكم من الشعر ؛ كنا لَنَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات »[٢] . قال أبو عبد الله : يعني بذلك المهلكات .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا »[٣] .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٥/ ٤٤٨) باختصار . والحديث رواه مسلم (١٦/ ١٢٠-١٢١) البر والصلة ، والترمذي (٨/ ١١٥) البر ، وأحمد (٢/ ٢٧٧) .

(٢) رواه البخاري (١١/ ٣٢٩) الرقاق .

(٣) رواه البخاري (١١/ ١٠٢) الدعوات ، والترمذي (٩/ ٣٠٨) صفة القيامة .

قال العيني : « السبب فيه أن قلب المؤمن منور ، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ذلك عظم الأمر عليه . والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل منه النجاة بخلاف الجبل إذا سقط عليه فإنه لا ينجو عادةً »[1] .

٦- ومن صفاتهم أنهم يتحرون العدل ويحكمون به ، ولا يحملهم بغض أحد على تركه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

قال الزمخشري : « لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم ؛ بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مُثْلَةٍ أو قَذْفٍ أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك . ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ : نهاهم أولًا أن تحملهم البغضاء

(١) نقلًا عن هامش « جامع الأصول » (١١/ ٥٠٨) .

على ترك العدل ، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله : ﴿ **هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ لكونه لطفًا فيها . وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ؛ فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه »[1] .

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال : نحلني أبي نحلًا ، فقالت أمي : لا أرضى حتى تُشْهِد عليه رسول الله ﷺ . فجاءه لِيُشْهِده على صدقتي ، فقال : « **أكُلَّ ولدك نحلت مثله ؟** » قال : لا . فقال : « **اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم** » . وقال : « **إني لا أشهد على جَوْر** » . قال : فرجع أبي فَرَدَّ تلك الصدقة[2] .

---

(١) « تفسير الكشاف » (١/ ٦١٢-٦١٣) باختصار .

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢١١) الهبة ، (٥/ ٢٥٨) الشهادات ، ومسلم (١١/ ٦٧) الهبة .

٧- ومن صفاتهم أنهم يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . وقد فسر بعض العلماء هذه الآية على أنها تحريض على الصدق وأمر به كابن كثير والقاسمي . ورجح بعضهم أنها حض على التزام طريق الصادقين كالشوكاني . ونقل عن سعيد بن جبير والضحاك : ﴿ كُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أبو بكر وعمر . وذكر القرطبي وابن جرير القولين ، ورجح ابن جرير الثاني منهما فقال : « والصحيح من التأويل في ذلك هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع (١) والضحاك ، وذلك أن رسوم المصاحف كلها مجمعة على ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وهي القراءة التي لا أستجيز لأحد القراءةَ بخلافها . وتأويل عبد الله رحمة الله عليه (٢) في ذلك على قراءته

---

(١) الأثر عن نافع قال : قيل للثلاثة الذين خلفوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ محمد وأصحابه .

(٢) قال ابن جرير : « وكان ابن مسعود رضي الله عنه فيما ذكر عنه يقرؤه : ﴿ وَكُونُواْ من

=

تأويل صحيح ، غير أن القراءة بخلافها [١] » .

وقال القرطبي : « هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين . واختلف في المراد هنا بالمؤمنين الصادقين على أقوال ، فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب ، وقيل : ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي : مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ لا مع المنافقين ؛ أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم . وقيل : هم المهاجرون ؛ لقول أبي بكر يوم السقيفة : إن الله سمانا الصادقين فقال : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾ الآية ، ثم سماكم بالمفلحين فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ الآية . وقيل : هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم .

قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى ؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة

ﭐلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ، ويتأوله أن ذلك نهي من الله عن الكذب » .

(١) « جامع البيان في تفسير القرآن » (١١/ ٤٦) ، دار المعرفة بيروت .

في العمل ، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها ؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة »[1] .

فلا شك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة رضي الله عنهم ؛ لأنهم أولى الناس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها . فقد شهد الله ﷻ لهم بالصدق ، وشهد لهم رسوله ﷺ ؛ فلا يجوز لأحد أن يلمزهم بشيء ، أو يتهمهم بما بَرَّأهم الله ﷻ منه ورسوله ﷺ . فالصحابة كلهم عدول ، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين ما يجعل العاقل يقطع بتعديلهم . فمن تقوى الله ﷻ موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم ، والاحتجاج بإجماعهم ، وفهم الكتاب والسنة على منهجهم وطريقتهم ، وبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٤/ ٣٢١٨) باختصار .

٨- المتقون يَدَعون ما لا بأس به حذرًا مما به بأس ، ويتقون الشبهات .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر [١] .

قال الحافظ : « المراد بالتقوى : وقاية النفس عن الشرك والأعمال السيئة والمواظبة على الأعمال الصالحة . وقوله : « حاك » أي : تردد . ففيه إشارة إلى أن بعض المؤمنين بلغ كنه الإيمان وحقيقته ، وبعضهم لم يبلغ . وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : تمام التقوى أن تتقي الله حتى تترك ما ترى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا » [٢] .

---

(١) رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به (١/ ٤٥) الإيمان ، والترمذي (٩/ ٢٧٨) صفة القيامة ، وابن ماجه (٤٢١٥) الزهد ، والحاكم (٤/ ٣١٩) عن عطية السعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرًا مما به بأس** » . وقال الترمذي : حسن غريب . وصحح إسناده الحاكم والذهبي وضعفه الألباني . وانظر « بلوغ المرام » (١٧٨) .

(٢) « فتح الباري » (١/ ٤٨) باختصار .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك » [١] . ومعنى ذلك أنهم يتركون كل ما يشكون في حله ؛ فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه شك ، وإنما تسكن إليه النفس . ويشبه هذه الحديث كذلك قوله ﷺ : **« إن الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام »** [٢] . فالمتقون يتورعون عن الشبهات وعما يرتابون فيه مما ليس حلالًا بينًا ، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البيّن . ومن اجترأ على الشبهة اجترأ

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٣٠) آداب القضاء . وقال أبو عبد الرحمن : هذا الحديث جيد . وقال الألباني : صحيح الإسناد موقوف ، يعني على عبد الله بن مسعود ﷺ ، وقد روي هذا الحديث مرفوعًا عن الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه الترمذي ، وهو في « جامع العلوم » الحديث الحادي عشر . وانظر كلام ابن رجب ﷺ ص (١٠١-١٠٢) .

(٢) رواه البخاري (١/ ١٢٦) الإيمان ، ومسلم (١١/ ٢٧) المساقاة والمزارعة ، وأبو داود (٢٣١٣) البيوع ، والترمذي (٥/ ١٩٨-١٩٩) البيوع ، وابن ماجه (٣٩٨٤) الفتن ، والدارمي (٢/ ٢٤٥) ، وأحمد (٤/ ٢٦٩) .

كذلك على الحرام ؛ ففي رواية الصحيحين : « **فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك** » . يعني : أن من ترك الإثم مع اشتباهه على فهو أولى بتركه إذا استبان أنه إثم .

قال ابن رجب رحمه الله : « وههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع ، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبهة ؛ فإنه لا يحتمل له ذلك بل ينكر عليه ، كما قال ابن عمر رضي الله عنه لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق : يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « **هما ريحانتاي من الدنيا** » [1] .

وسأل رجلٌ بشر بن الحارث عن رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها فقال : إن كان بَرَّ أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٩٥) فضائل الصحابة ، والترمذي (١٣/ ١٩٣) المناقب . قال ابن الأثير : « الريحان والريحانة » : الرزق والراحة ، ويسمى الولد ريحانًا وريحانة لذلك .

طلاق زوجته فليفعل ، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل .

وسُئل الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلًا ويشترط الخُوصة – يعني التي تربط بها حزمة البقل – ، فقال أحمد : إيش هذه المسألة ؟ قيل : إن إبراهيم بن أبي نعيم يفعل ذلك . فقال أحمد : إن كان إبراهيم بن أبي نعيم فنعم ، هذا يشبه ذاك » . وإنما أنكر هذه المسائل ممن لا يشبه حاله ، وأما أهل التدقيق في الورع فيشبه حالهم هذا .

وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل في نفسه هذا الورع ، فإنه أمر من يشترى له سمنًا فجاء به على ورقة ، فأمر برد الورقة إلى البائع »(١) .

(١) « جامع العلوم والحكم » ص (١٠٣-١٠٤) باختصار .

ثمرات التقوى

ونختم هذا البحث المعطار بذكر ثمرات التقوى العاجلة والآجلة . نسأل الله سعادة الأولى والآخرة .

فالتقوى هي أعظم سبب للسعادة في الدنيا والآخرة ، بل لا سعادة بدونها ؛ لأن مدار التقوى على معرفة الله ﷻ معرفة تشغل العبد بطاعته وذكره وشكره . وهذه من سعادة النفوس . وما يترتب على ذلك من محبة الله ﷻ والرضا به وحسن التوكل عليه سعادة أعظم من السعادة الأولى .

فالمتقون يسعدون بالطاعة وثمارها في الدنيا . وشاهد هذه السعادة في نفس العبد أنه إذا وقع في معصية الله ﷻ لضعف وازع التقوى كم يجد من حرج في صدره ، وضيق ووحشة بينه وبين الله ﷻ وبين عباد الله المؤمنين ، فلو حصلت له الدنيا بحذافيرها لم تعوضه هذه الوحشة .

يقول ابن القيم رحمه الله واصفًا من ذاق شيئًا من سعادة التقوى ثم حُرم ذلك : « ومن ذاق شيئًا من ذلك طريقًا

موصلةً إلى الله ﷻ ثم تركها وأقبل على إراداته وراحاته وشهواته ولذاته ؛ وقع في آثار المعاطب ، وأودع قلبه سجون المضايق ، وعُذِّبَ في حياته عذابًا لم يُعَذَّب به أحد من العالمين ، فحياته عجز وغم وحزن ، وموته كَدَر وحسرة ، ومعاده أسف وندامة ، قد فرط عليه أمره ، وشتت عليه شمله ، وأحضر نفسه الغموم والأحزان ، فلا لذة الجاهلين ، ولا راحة العارفين ، يستغيث فلا يُغاث ، ويشتكي فلا يُشكى ، فقد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة ، وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته ، فقد أبدل بأُنسِهِ وحشة ، وبِعِزِّهِ ذلًا ، وبغناه فقرًا ، وبجمعيته تشتتًا .

وَأَبْعَدُوه فلم يظفر بقُرْبِهِمُ
وأبدلوه مكانَ الأُنْسِ إيحاشا

ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله ثم تركها وناكب عنها مُكِبًّا على وجهه ، فأبصر ثم عمي ، وعرف ثم أنكر ، وأقبل ثم أدبر ، ودُعي فما أجاب ، وفتح له فولى ظهره للباب ، قد ترك طريق مولاه ، وأقبل بكليته على هواه ، فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته وشئونه ؛ فهو مقيد القلب عن انطلاقه

في فسيح التوحيد ، وميادين الأنس ، ورياض المحبة ، وموائد القرب ، قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سافلين ، وحصل في عِداد الهالكين ، فنار الحجاب تطلع كل وقت علي فؤاده ، وإعراض الكون عنه إذا أعرض عنه مولاه حائل بينه وبين مراده »[1] . إلى آخر ما ذكره ﷺ . فلا تستطل ما ذكرناه . والله يعصمنا من الزلل ، ويمن علينا بصالح القول والعمل . وكما رزقنا محبة الصالحين نسأله تعالى أن يرزقنا سلوك طريقهم ، وذوق حلاوة مواجيدهم ، ونعوذ به من السلب بعد العطاء ، ومن الحَوْر بعد الكور . وفي حدائق التقوى ننزه قلوبنا وجوارحنا برؤية ثمرات التقوى وبشارات المتقين . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) « طريق الهجرتين » ص (١٨٠) السلفية .

ثمرات التقوى العاجلة

١ - المخرج من كل ضيق ، والرزق من حيث لا يحتسب .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

عن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة . وقيل : المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه . قاله علي بن صالح . وقال الربيع بن خُثَيْم : ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ من كل شيء ضاق على الناس . وقال سهل بن عبد الله : ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجًا من عقوبة أهل البدع ، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب .

قيل : ومن يتق الله في الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجًا بالكفاية . وقال عمر بن عثمان الصدفي : ومن يتق الله فيقف عند حدوده ويتجنب معاصيه ؛ يخرجه من الحرام إلى الحلال ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن النار إلى الجنة . ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ : من حيث لا يرجو . وقال ابن عيينة : هو البركة

في الرزق . وقال أبو سعيد الخدري ﷺ : ومن يبرأ من حوله وقوته بالرجوع إلى الله ؛ يجعل له مخرجًا مما كَلَّفَه بالمعونة له [١] .

٢- السهولة واليسر في كل أمر :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] . قال مقاتل : ومن يتق الله في اجتناب معاصيه ؛ يجعل له من أمره يسرًا في توفيقه للطاعة [٢] .

قال سيد قطب ﷺ : « واليسر في الأمر غاية ما يرجوه الإنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده ، فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة ، يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره ، ويناها بيسر في حركته وعمله ، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها ، ويعيش من هذا في يسر رَخِيٍّ نَدِيٍّ حتى يلقى الله » [٣] .

---

(١) باختصار من « الجامع لأحكام القرآن » (٨/ ٦٦٣٨-٦٦٣٩) .
(٢) « الجامع لأحكام القرآن » (٨/ ٦٦٤٤) .
(٣) « في ظلال القرآن » (٦/ ٣٦٠٢) .

٣- تيسر تعلم العلم النافع .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

قال العلامة محمد رشيد رضا : « أي : اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ؛ وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم ، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك ، وهو سبحانه العليم بكل شيء ، فإذا شرع شيئًا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه . وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير »[1] .

(١) استدل الصوفية بهذه الآية الكريمة على ما يزعمون بحصول العلم اللَّدُنِّي ، وأن ما يأتونه من رياضات وأوراد يكفي في حصول ذلك العلم دون أن يأخذوا بأسباب العلم من طلبه وتعلمه . وقد قال النبي ﷺ : « إنما العلم بالتعلم » . ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به وسيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ . ويقولون فخرًا : أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت . ويقول بعضهم : أنتم تأخذون عن عبد الرزاق ونحن نأخذ عن الواحد الخلاق . وهذا ولا شك من جهلهم بالدين ، وفتح أبواب الشياطين ، فيدعي من شاء ما يشاء ويقول : حدثني قلبي عن ربي . ولا شك أن من يُوحَى إليه بتكاليف شرعية تثبت له بذلك مرتبة النبوة . ورسولنا ﷺ =

وقال البيضاوي : كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لاستقلالها ؛ فالأولى حث على التقوى ، والثانية وعد بإنعامه ، والثالثة تعظيم بشأنه ، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية .

٤ - إطلاق نور البصيرة .

قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

قال العلامة محمد رشيد رضا : « الفرقان في اللغة هو الصبح الذي يفرق بين الليل والنهار . ويسمى القرآن فرقانًا لأنه فرق بين الحق والباطل . وتقوى الله في الأمور كلها تعطي صاحبها نورًا يفرق به بين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس ؛ فهي تفيده علما خاصا لم يكن ليهتدي إليه لولاها . وهذا العلم هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه ، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه ، لأنها عبارة

خاتم النبيين . ولفظ الآية لا يساعدهم على دعواهم ؛ فلم يقل الله ﷻ : واتقوا الله يعلمكم الله ، وإلا كان مفيدًا لما قالوه . والعطف يقتضي المغايرة . والصحيح أنه يقال : ييسر الله ﷻ للعبد أسباب التعلم إذا اتقى الله ﷻ . ويدل على ذلك أثر : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » . ومما يوضح ذلك الثمرة الرابعة .

عن العمل فعلًا وتركًا بعلم ، فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلا بالتعلم ، كما ورد في الحديث : « **العلم بالتعلم** »[١] .

وإذا علمت أن التقوى عمل يتوقف على العلم ، وأن هذا العلم لا بد أن يؤخذ بالتعليم والتلقي ، وأن العمل بالعلم من أسباب المزيد فيه ، وخروجه من مضيق الإبهام والإجمال إلى فضاء الجلاء والتفصيل ؛ فهمت المراد بالفرقان على عمومه ، وعلمت أن أدعياء التصوف الجاهلين لا حَظَّ لهم من ذلك العلم الأول ، ولا من هذه التقوى التي هي اثره ، ولا من هذا العلم الأخير الذي هو أثر العلم والتقوى جميعًا »[٢] .

---

(١) قال الحافظ : « **إنما العلم بالتعلم** » هو حديث مرفوع أيضًا أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية ـ ثم ذكره ـ وإسناده حسن إلا أن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر . « فتح الباري » (١١/ ١٦١) . وقال الألباني : رواه الخطيب في تاريخه (٩/ ٢٧) عن أبي هريرة مرفوعًا وحسنه . وانظر « الصحيحة » رقم (٣٤٢) .

(٢) باختصار وتصرف من « تفسير المنار » (٣/ ١٢٩-١٣١) .

٥- محبة الله ﷻ، ومحبة ملائكته، والقبول في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ٧٦]. عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببتُ فلانًا فأَحِبَّه. فيحبه جبريل** عليه السلام. **ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض** »(١).

وكتب أبو الدرداء ﷺ إلى مسلمة بن مخلد: سلام عليك. أما بعد: فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى عباده. وعن هرم بن حيان قال: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين عليه حتى يرزقه مودتهم.

فقد وعد الله ﷻ عباده المؤمنين الذين يداومون على الأعمال الصالحة بهذه المودة والمحبة، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا** ﴾ [مريم: ٩٦].

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٦١) الأدب، ومسلم (١٦/ ١٨٣-١٨٤) البر والصلة، ومالك في « الموطأ » (٢/ ٩٥٣) الشعر.

٦ - نصرة الله ﷻ وتأييده وتسديده .

وهي المعية المقصودة بقول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] . فهذه المعية هي معية التأييد والنصرة والتسديد ، وهي معية الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين .

قال ابن رجب رحمه الله : « وهذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء : ١٠٨] ، فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة ، كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ »[1] [طه : ٤٦] .

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله ﷻ . أما المعية الخاصة فتستوجب من العبد الأنس بالله ﷻ والثقة بنصره وتأييده .

---

(١) « نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس » ص (٤١) .

قال قتادة : ومن يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل . وكتب بعض السلف إلى أخيه : أما بعد : إن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟

٧- البركات من السماء والأرض .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

قال القاسمي رحمه الله : « ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي : القرى المُهْلَكَة . ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي : بالله ورسلهم . ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي : الكفر والمعاصي . ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الأرض »[1] .

ويدل على هذا المعنى قوله ﷻ : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] .

---

(١) « محاسن التأويل » (٧/ ٢٢١) باختصار .

يقول ابن القيم رحمه الله : « فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظَّلَمَة والخَوَنَة والفجرة ؛ يخرج عبدًا من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قِسْطًا كما ملأت جَوْرًا ، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارى ، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركتها وتعود كما كانت ؛ حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفتها ، ويكون العنقود من العنب وِقْر بعير ، ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس . وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر »[1] .

فانظر إلى بركات التقوى ! واعلم أن ما نحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار وكثرة الآفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصي ، كما قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

---

(١) « الجواب الكافي » (٦٧) باختصار ـ دار عمر بن الخطاب .

٨- البشرى . وهي : **الرؤيا الصالحة ، وثناء الخلق ومحبتهم** .

قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] .

قال الزمخشري رحمه الله : « والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه . وعن النبي ﷺ : « **هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له** » (١) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « **ذهبت النبوة وبقيت المبشرات** » (٢) .

وقيل : هي محبة الناس له والذكر الحسن . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله (عليه الصلاة والسلام) : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس ؟ فقال : « **تلك عاجل بشرى المؤمن** » (٣) .

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ١٢٨) أبواب الرؤيا ، وقال : هذا حديث حسن . ومالك في « الموطأ » (٢/ ٩٥٨) الرؤيا ، والحاكم (٤/ ٣٩١) الرؤيا ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري (١٢/ ٣٧٥) التعبير ، والترمذي (٩/ ١٢٧) أبواب الرؤيا ، عن أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٨٩) البر والصلة ، وأحمد (٥/ ٢٥٦، ١٥٧، ١٦٨) ، وابن ماجه (٤٢٢٥) الزهد . وقال العلماء : معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير . وهي دليل على =

وعن عطاء : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة . قال الله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ﴾ [فصلت : ٣٠] . وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم ، وما يقرؤون منها ، وغير ذلك من البشارات [١] .

٩ - الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم .

قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

قال ابن كثير رحمه الله : « يرشدهم إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم ؛ فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » [٢] .

رضاء الله تعالى عنه ، ومحبته له ، فيحببه إلى الخلق - كما سبق في الحديث - ثم يوضع له القبول في الأرض . هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم . « شرح النووي علي صحيح مسلم » (١٦/ ١٨٩) .

(١) « الكشاف » (٢/ ٣٥٦) باختصار .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٣٢٩) .

وقال الزمخشري رحمه الله : « وإن تصبروا على عداوتهم وتَتَّقُوا ما نهيتم عنه من موالاتهم ، أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه ، وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه ؛ وكنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم . وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى . وقد قال الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلًا في نفسك . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿ مُحِيط ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله »[1] .

١٠ - حفظ الذرية الضِّعاف بعناية الله ﷻ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] .

قال القاسمي رحمه الله : « وفي الآية إشارة إلى إرشاد الآباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شؤونهم ؛ حتى تحفظ أبناؤهم وتُغاث بالعناية منه تعالى .

---

(١) « الكشاف » (١/ ٤٠٨) باختصار .

ويكون في إشعارها تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله ، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع ، وأن الرجال الصالحين يُحْفَظون في ذريتهم الضعاف ، كما في آية : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف : ٨٢] ، فإن الغلامين حُفِظَا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما »[1] .

قال محمد بن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ الله وستره .

وقال ابن المسيب لابنه : يا بني ، إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أُحْفَظ فيك . وتلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف : ٨٢] .

١١ - سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

---

(١) « محاسن التأويل » (٥/ ٤٧) .

قال الزمخشري رحمه الله : « لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده لأخيه بالقتل قال له : إنما أُتِيتَ من قِبَلِ نفسك لانسلاخها من لباس التقوي لا من قِبَلي ، فَلِمَ تقتلني ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول ؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعاني الخير ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن مُتَّقٍ ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم .

وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت ؟ قال : إني أسمع الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ »[1] .

وقال الغزالي رحمه الله : « تأمل أصلًا واحدًا وهو أنه هَبْ أنك قد تعبت جميع عمرك في العبادة ، وكابدت حتى حصل لك ما تمنيت ، أليس الشأن كله في القبول ؟ ولقد علمت ان الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فرجع الأمر كله إلى التقوى »[2]

---

(١) « الكشاف » (١/ ٦٢٤) .

(٢) « منهاج العابدين » ص (٧٢) .

وقال بعض السلف : لو أعلم أن الله يقبل مني سجدة بالليل وسجدة بالنهار لَطِرْتُ شوقًا إلى الموت . إن الله ﷻ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

١٢ - سبب النجاة من عذاب الدنيا .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت : ١٧-١٨] .

قال ابن كثير رحمه الله : « ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ : قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد : بَيَّنَّا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام ، فخالفوه وكذبوه ، وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم . ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ أي : بعثنا عليهم صيحة ورجفة وذلًّا وعذابًا ونكالًا . ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي من التكذيب والجحود . ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي : من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم وتقواهم لله ﷻ »(١) .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٩٥) .

١٣- ما يجعله الله لهم من الشرف وهيبة الخلق وحلاوة المعرفة والإيمان .

قال ابن رجب رحمه الله : « ومنها (أي : مما يُرَغِّبُ في شرف الآخرة) ـ وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ـ ما يعوض الله عباده العارفين به ، الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف ؛ مما يجعله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهَيْبَةِ الخلق لهم في الظاهر ، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن ، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن . وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف .

كان حجاج بن أَرْطَأَة يقول : قتلني حب الشرف . فقال له سوار : لو اتقيت الله شرفت . وفي هذا المعنى قيل :

ألا إنما التَّقوى هي العِزُّ والكَرَم
وحُبُّكَ للدنيا هو الذُّلُّ والسَّقَم
وليس على عَبْدٍ تُقَى نَقيصَةٌ إذا
حَقَّقَ التقوى وإنْ حَاكَ أو حَجَم

وقال صالح الباجي : الطاعة إمرة . والمطيع لله أمير مُؤَمَّرٌ

على الأمراء . ألا ترى هيبته في صدورهم ؟ إن قال قبلوا ، وإن أمر أطاعوا . ثم يقول : يحق لمن أحسن خدمتك ومننت عليه بمحبتك أن تذلل له الجبابرة حتى يهابوه . لِهَيْبَتُهُ في صدورهم من هيبتك في قلبه . وكل الخير من عندك بأوليائك .

وقال ذو النون المصري : مَنْ أكرم وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده ؟

كان مالك بن أنس يُهَابُ أن يُسْأَلَ حتى قال فيه القائل :

يَـدَعُ الجـوابَ ولا يُرَاجَـعُ هَيْبَـةً
والسـائلون نَـوَاكِسُ الأَذْقَـانِ
نُـورُ الوَقَـارِ وَعِـزُّ سُـلْطَانِ التُّقَـى
فَهُـوَ المَهِيـبُ وَلَـيْسَ ذا سُـلْطانِ (١)

١٤- الذَّرَّةُ من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادةً من المُغْتَرِّين .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : يا حبذا نوم الأكياس وفِطْرهم ، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم . والذرة من صاحب تقوى أفضل

(١) باختصار من شرح حديث : « ما ذئبان جائعان » لابن رجب الحنبلي ص (٢١-٢٢) .

من أمثال الجبال عبادة من المغترين . وهذا من جواهر الكلام وأدلِّه على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير ﷺ .

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه لا ببدنه . والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح .

فالكَيِّسُ يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعافَ أضعافِ ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق ؛ فإن العزيمة والمحبة تُذْهِبُ المشقة وتُطَيِّبُ السَّيْرَ ، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحبُ الهمة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله [1] .

فالأعمال تتفاضل بِحَسَبِ ما في قلوب أصحابها من إيمان وتقوى لله ﷻ ، وإن الرجلين ليكونان في صف واحد وخلف إمام واحد يكبران بتكبيره ويسلمان بتسليمه وبين صلاتيهما

---

(١) « الفوائد » ص (١٨٦-١٨٧) لابن القيم ، باختصار .

كما بين السماء والأرض . وكم من قائم محروم ، وكم من نائم مرحوم ؛ هذا قام وقلبه فاجر ، وهذا نام وقلبه عامر .

فالسير سير القلوب ، والسبق سبق الهمم ..

مَـنْ لِـي بمِثْـلِ سَـيْرِكَ المُـدَلَّل

تَمْشِـي رُوَيْـدًا وتجـيء في الأَوَّلِ

الثمرات الآجلة

١ - تكفير السيئات ؛ وهو سبب النجاة من النار . وعظم الأجر ؛ وهو سبب الفوز بدرجات الجنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

قال ابن كثير رحمه الله : « أي : يُذْهِبُ عنهم المحظور ، ويُجْزِلُ لهم الثواب على العمل اليسير »(١) .

وقال ابن جرير رحمه الله : « ومن يَخَفِ الله فيتقه باجتناب معاصيه وأداء فرائضه ؛ يمحو الله عنه ذنوبه وسيئات أعماله . ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ يقول : ويجزل له الثواب على عمله ذلك وتقواه ، ومن إعظامه له الأجر أن يدخله جنته فيخلده فيها »(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٥] .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٣٨٢) .

(٢) « جامع البيان في تفسير القرآن » (١٢/ ٩٣) .

ولا يَصْدُرُ عن النار بعد ورودها إلا المتقون . قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧١-٧٢] .

٢- عِزُّ الفَوْقِيَّة فوق الخلق يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

قال القاسمي ﷺ : « ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ حتى بدلوا النعمة ﴿ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ لحضورها فألهتهم عن رغائب الآخرة .

قال الحدَّالي : ففي ضمنه إشعار بأن استحسان بهجة الدنيا كفر ما ؛ من حيث أن نظر العقل والإيمان يبصر طيتها ويشهر جيفتها ، فلا يغتر بزينتها وهي آفة الخلق في انقطاعهم عن الحق ؛ فأبهم تعالى المزين في هذه الآية ليشمل أدنى التزيين الواقع على لسان الشيطان ، وأخفى التزيين الذي يكون من استدراج الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

قوله : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي : يهزؤون ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : ٢٩-٣٠] .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ وهم المؤمنون ، وإنما ذكروا بعنوان التقوى لحضهم عليها ، وإيذانًا بترتب الحكم عليها . ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل سافلين ، أو لأنهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا ، كما قال تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٥] .

ولذا قال الراغب : يحتمل قوله تعالى ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ وجهين :

أحدهما : أن حال المؤمنين في الآخرة أعلى من حال الكفار في الدنيا . **والثاني** : أن المؤمنين في الآخرة في الغرفات ، والكفار في الدرك الأسفل من النار »[1] . انتهى .

---

(١) « محاسن التأويل » (٣/ ١٨٢-١٨٥) باختصار .

٣- ميراث الجنة . فهم أحق بها وأهلها ، بل ما أعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرُّتْبة العَلِيّة والجوهرة البهية .

قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾ [مريم : ٦٣] . فهم الورثة الشرعيون لجنة الله ﷻ .

قال الزمخشري رحمه الله : « ﴿ **نُورِثُ** ﴾ وقرئ ﴿ **نُوَرِّثُ** ﴾ استعارة أي : نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث . ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقطعت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ؛ فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث المال من المُتَوَفَّى . وقيل أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا »[1] .

وقال تعالى ﴿ **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ [القلم : ٣٤] .

---

(١) « الكشاف » (٣/ ٢٨) .

٤- وهم لا يذهبون إلى الجنة سَيْرًا على أقدامهم ، بل يحشرون إليها رُكْبَانًا .

مع أن الله ﷻ يقرب إليهم الجنة تحيةً لهم ودفعًا لمشقتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٣١] .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم : ٨٥] .

قال ابن كثير رحمه الله : « يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما زجروهم ؛ أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه . والوفد هم القادمون رُكْبَانًا . ومنه الوفود . وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة . وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه »[(١)] .

وقال الزمخشري رحمه الله : « ذكر المتقون بلفظ التبجيل ، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته . كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ١٣٧) .

وعن علي ﷺ : ما يحشرون والله على أرجلهم ، ولكنهم على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت . »[١] .

٥- وهم لا يدخلون أدنى درجاتها ، بل يفوزون فيها بأعلى الدرجات وأفضل النعيم . نسأل الله من فضله العظيم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٤٩] . والمآب هو المرجع والمُنْقَلَب . ثم فصل ذلك ﷻ فقال : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : ٥٠-٥٤] .

وبين الله ﷻ قربهم من الحضرة واللقاء والرؤية والبهاء ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤-٥٥] .

---

(١) « الكشاف » (٣/ ٤٢) . وأثر علي ﷺ أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، والطبري ، وابن أبي حاتم من رواية عبد الرحمن بن إسحق عن النعمان بن سعد عن علي نحوه ، وأخرجه ابن أبي داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعًا ، ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا أيضًا .

قال القرطبي رحمه الله : « ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي : مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة . ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي : يقدر على ما يشاء و﴿ عِندَ ﴾ هاهنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة »[١] .

وقال الزمخشري رحمه الله : « ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي . وقرئ : ﴿ فِي مَقْاعد صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ مقربين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته . فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها »[٢] . ولا عجب في ذلك ، فقد جمع الله ﷻ للمتقين كل نعيم الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ، ووصف دارهم فقال ﷻ : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ٣٠] .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٧/ ٦٣٢٠) .
(٢) « الكشاف » (٤/ ٤٤٢) .

٦- وهي تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشاقة .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

قال الزمخشري رحمه الله : « تنقطع في ذلك اليوم كل خُلَّةٍ بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتًا إلا خلة المتصادقين في الله ؛ فإنها الخلة الباقية ، المزدادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله . وقيل : إلا المتقين والمجتنبين أخلاء السوء »[1] .

فالمتقون هم الذين تدوم محبتهم وخلتهم ، كما قيل : ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

ومن بركة التقوى كذلك : أن ينزع الله ﷻ ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل ؛ فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝

(١) « الكشاف » (٣/ ٢٦٣) .

ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٥-٤٧] .

قال ابن الجوزي ﷺ : « قال ابن الأنباري : ما مضى من التآخي قد كان تشوبه ضغائن وشحناء ، وهذا التآخي بينهم الموجود عند نزع الغِلّ هو تآخي المصافاة والإخلاص »(١) .

٧- وهم يسعدون بالصحبة والمحبة وهم يساقون إلى الجنة زمرًا زمرًا .

قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] .

قال ابن كثير ﷺ : « وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة . ﴿ زُمَرًا ﴾ أي : جماعة ؛ المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم . كل طائفة مع ما يناسبهم ؛ الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ،

---

(١) « زاد المسير » (٤/ ٤٠٤) المكتب الإسلامي .

والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، وكل زمرة تناسب بعضها بعضًا »[١] .

وقال القرطبي رحمه الله : « قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته . وقال في حق الفريقين : ﴿ وَسِيقَ ﴾ بلفظ واحد ؛ فَسَوْقُ أهل النار : طردهم إليها بالخزي والهوان كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، وَسَوْقُ أهل الجنان : سَوْقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك . فشتان ما بين السَّوْقَين »[٢] .

وقيل كل جماعة أو طائفة تعاونت على الخير والطاعة فإنهم ينادون يوم القيامة ويكونون زمرة من الزمر المساقة إلى الجنة .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٥) .

(٢) « الجامع لأحكام القرآن » (٧/ ٥٧٢٨-٥٧٢٩) .

خاتمة

نسأل الله حسنها إذا بلغت الروح المنتهى

وقد سعدنا بصحبة التقوى وأهلها وثمارها بين طيات هذا الكتاب المبارك . فهل لك يا أخي القارئ الكريم في أن تحقق لنفسك السعادة في لحظة واحدة ؟ وهي لحظة صدق يجلس فيها العبد إلى نفسه فلا يخدعها ولا تخدعه ، يفكر فيما مضى من عمره ، ويتذكر قول القائل : ما مضى من أعمارنا وإن طالت أوقاته فقد ذهبت لذاته وبقيت تبعاته ، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته . قال الله ﷻ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥-٢٠٧] . تلا بعض السلف هذه الآية وبكى وقال : إذا جاء الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم . وفي هذا المعنى ما أنشده أبو العتاهية للرشيد حين بنى قصره واستدعى إليه ندماءه :

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا
فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ القُصُورِ

يَسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ
لَدَى الرَّوَاحِ وَفِي البُكُورِ
فَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ
فِي ضِيقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا
مَا كُنْتَ إِلا فِي غُرُورِ (١)

فالدنيا مَعْبَر لا مَقَرّ ، ورِحْلَة لا مكث . والسعيد من اتَّعَظَ بغيره وانتهز فرصة الحياة الدنيا في التزود للآخرة .

قال الحسن : نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن ؛ وذلك لأنه عمل فيها قليلًا وأخذ منها زاده إلى الجنة . وبئست الدار الدنيا كانت للكافر والمنافق ؛ وذلك لأنه أضاع فيها لياليه وأخذ منها زاده إلى النار . وكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة تستطيع أن تشتري بها كنزًا لا يفنى أبد الآباد .

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ انْشَغَل
وَغَرَّهُ طُولُ الأَمَل
المَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً
والقَبْرُ صُنْدُوقُ العَمَل

(١) باختصار وتصرف من « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبلي ص (٣١٥، ٣١٧) دار الجيل .

فهل لك يا عبد الله في الفلاح والنجاح والفوز والنجاة في لحظة واحدة ؟ لحظة صدق تتذكر ما مضى من جنايات ومخالفات ؛ فتصلح الماضي بتوبة ، وتصلح الحاضر بعمل صالح ، وتصلح المستقبل بعزيمة صادقة ونية مخلصة على الاستمرار في طاعة الله ﷻ والتزود بالتقوى .

قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] .

وقال النبي ﷺ : « **قل أمنت بالله ثم اسْتَقِمْ** » (١) فما أوجزه وأطيبه وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة ! وكيف لا وهو من كلام من أوتي جوامع الكلم ﷺ .

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٨-٩) الإيمان ، وأحمد (٣/ ٤١٣) ، (٤/ ٣٨٥) وفيه زيادة : قال : وما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه . ورواه الترمذي (٩/ ٢٤٩) الزهد ، وابن ماجه (٣٩٧٢) بلفظ : « قل ربي الله . . . » .

قال ابن القيم رحمه الله : « هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء ، بل من أقرب الطرق وأسهلها ، وذلك أنك في وقت بين وقتين ، وهو في الحقيقة عمرك ، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل ؛ فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار ، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق ، إنما هو عمل قلب ، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب ، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملًا بالجوارح يشق عليك معاناته ، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك .

فما مضى تصلحه بالتوبة ، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية ، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب . ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين ، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك ، وإن حفظته ـ مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذُكِرَ ـ نَجَوْتَ وفُزْتَ بالراحة واللذة والنعيم »[1] .

(١) « الفوائد » ص (١٥١-١٥٢) دار الدعوة .

نسأل الله أن يختم لنا بخاتمة السعادة ، وأن يرزقنا الحسنى وزيادة ، وأن يجعلنا من عبادة المتقين ، الذين يسعدون في الدنيا بالطاعات ومحبة رب العالمين ، وفي الآخرة بالجنات والنظر إلى وجه الله الكريم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجع البحث

(أ) تفاسير :

١ - « أضواء البيان » ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، المدني .

٢ - « تفسير القرآن العظيم » ، للحافظ ابن كثير ، دار المعرفة .

٣ - « جامع البيان » ، لابن جرير الطبري ، دار المعرفة .

٤ - « الجامع لأحكام القرآن » ، للقرطبي ، الشعب .

٥ - « روح المعاني » ، للألوسي ، دار التراث .

٦ - « زاد المسير » ، لابن الجوزي ، المكتب الإسلامي .

٧ - « فتح القدير » ، للشوكاني ، دار المعرفة .

٨ - « في ظلال القرآن » ، لسيد قطب ، دار العلم ببنها .

٩ - « الكشاف » ، للزمخشري ، الريان .

١٠ - « محاسن التأويل » ، للقاسمي ، دار الفكر .

١١ - « المنار » ، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة .

(ب) حديث :

١- « بلوغ المرام في تخريج الحلال والحرام » للألباني ، المكتب الإسلامي .

٢- « جامع الأصول » ، لابن الأثير ، دار الفكر .

٣- « سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي » ، دار الكتب العلمية .

٤- « سنن ابن ماجه » بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة العلمية .

٥- « سنن الدارمي » ، دار الكتب العلمية .

٦- « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ، للألباني ، المكتب الإسلامي .

٧- « شرح السنة » ، للبغوي ، بتحقيق الأرناؤوط ، دار بدر .

٨- « صحيح الجامع الصغير وزيادته » للألباني ، المكتب الإسلامي .

٩- « صحيح ابن ماجه » ، للألباني ، مكتب التربية العربي الدولي .

١٠- « صحيح النسائي » ، للألباني ، مكتب التربية العربي الدولي .

١١- « صحيح الترمذي » ، للألباني ، مكتب التربية العربي الدولي .

١٢- « عون المعبود شرح سنن أبي داود » ، لشمس الحق أبادي ، المكتبة السلفية .

١٣- « عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي » ، لابن العربي ، دار الوحي المحمدي .

١٤- « فتح الباري شرح صحيح البخاري » ، لابن حجر ، طبعة السلفية .

١٥- « فيض القدير شرح الجامع الصغير » ، دار المعرفة .

١٦- « مستدرك الحاكم وبهامشه التلخيص للذهبي » ، دار المعرفة .

١٧- « مسند الإمام أحمد بفهرس الألباني » ، المكتب الإسلامي .

١٨- « موطأ مالك » ، ط. الحلبي .

١٩- « مسلم بشرح النووي » ، المطبعة المصرية .
٢٠- « المعجم المفهرس » ، لجماعة من المستشرقين ، دار الدعوة .

(ج) رقائق ومواعظ :

١- « استنشاق نسيم الأنس » ، لابن رجب ، دار الفتح
٢- « تفسير المعوذتين » ، لابن القيم ، السلفية .
٣- « تلبيس إبليس » ، لابن الجوزي ، المتنبي .
٤- « جامع العلوم والحكم » ، لابن رجب ، الحلبي .
٥- « الجواب الكافي » ، لابن القيم ، دار عمر بن الخطاب .
٦- « شرح حديث (ما ذئبان جائعان) » لابن رجب ، دار الفتح .
٧- « صيد الخاطر » ، لابن الجوزي ، دار الكتب العلمية
٨- « صيانة الإنسان » ، لابن مفلح ، دار الكتب العلمية .
٩- « طريق الهجرتين » ، لابن القيم ، السلفية .
١٠- « رسالة المسترشدين » ، للمحاسبي ، بتحقيق أبو غدة ، دار السلام .

١١ - « روضة المحبين » ، لابن القيم ، دار الصفا .

١٢ - « الرسالة التبوكية » ، لابن القيم ، بتحقيق أشرف عبد المقصود ، التوعية الإسلامية .

١٣ - « غالية المواعظ » ، لنعمان محمود الألوسي ، دار المعرفة .

١٤ - « الفوائد » ، لابن القيم ، دار الدعوة .

١٥ - « لطائف المعرف » ، لابن رجب الحنبلي ، دار الجيل .

١٦ - « منهاج العابدين » ، للغزالي ، مكتبة الجندي .

١٧ - « نور الاقتباس » ، لابن رجب ، المدني .

١٨ - « المدهش » ، لابن الجوزي ، دار الكتب العلمية .

١٩ - « المصباح المنير » ، للرافعي ، دار المعارف .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
* **معنى التقوى ومراتبها :**	٩
مقولة ابن رجب رحمه الله	٩
مقولة ابن القيم رحمه الله	١١
مقولة الألوسي رحمه الله	١٣
مقولة الغزالي رحمه الله	١٤
* **شرف التقوى وأهميتها :**	٢٣
التقوى وصية الله ﷻ للأولين والآخرين	٢٣
التقوى وصية النبي ﷺ لأمته	٢٤
التقوى وصية الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام	٢٨
التقوى وصية السلف الصالح رضي الله عنهم	٢٩
التقوى أجمل لباس يتزين به العبد	٣١
التقوى أفضل زاد يتزود به العبد	٣٣

أهل التقوى هم أولياء الله ﷻ وهم أكرم الناس ٤٣
لشرف التقوى أمر الله المؤمنين بالتعاون عليها ٣٥
* كيف تتقي الله ﷻ ؟ ٣٨
محبة الله ﷻ ٤٠
التدرب على المراقبة ٤٦
معرفة ما في سبيل المعاصي والآثام من الشرور والآلام
تتعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك ٥٦
معرفة مكائد الشيطان ومصائده والحذر من وساوسه
ودسائسه ٦٦
* صفات المتقين ٧٤
يؤمنون بالغيب إيمانًا جازمًا ٧٧
يعفون ويصفحون ٧٩
غير معصومين ، غير أنهم لا يقارفون الكبائر ولا يصرون على
الصغائر ٨١
يتحرون الصدق في أقوالهم وأعمالهم ٨٣
يعظمون شعائر الله ﷻ ٨٥

يتحرون العدل ويحكمون به ٨٧
يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ٨٩
يدعون ما لا بأس به حذرًا مما به بأس ٩٢
* **ثمرات التقوى :** ٩٦
• **ثمرات التقوى العاجلة :** ٩٩
١- المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسب ... ٩٩
٢- السهولة واليسر في كل أمر ١٠٠
٣- تيسر العلم النافع ١٠١
٤- إطلاق نور البصيرة ١٠٢
٥- محبة الله ﷻ ومحبة ملائكته والقبول في الأرض ... ١٠٤
٦- نصرة الله ﷻ وتأييده وتسديده ١٠٥
٧- البركات من السماء والأرض ١٠٦
٨- البشرى . وهي : الرؤيا الصالحة ومحبة الخلق ١٠٨
٩- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم ١٠٩
١٠- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله ﷻ ١١٠

١١- سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد ١١١
١٢- سبب النجاة من عذاب الدنيا ١١٢
١٣- ما يجعله الله لهم من الشرف وهيبة الخلق وحلاوة المعرفة ١١٤
١٤- الذرة من صاحب التقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين ١١٥
• **ثمرات التقوى الآجلة :** ١١٨
١- تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار وعظم الأجر ١١٨
٢- عز الفوقية فوق الخلق يوم القيامة ١١٩
٣- ميراث الجنة ١٢١
٤- لا يذهبون إلى الجنة سيرًا على أقدامهم ، بل يحشرون إليها ركبانًا ١٢٢
٥- لا يدخلون أدنى درجاتها ، بل يفوزون فيها بأعلى الدرجات ١٢٣

٦- تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة
ومودة إلى عداوة ومشاقة ١٢٥
٧- يسعدون بالصحبة وهم يساقون إلى الجنة
زمرًا زمرًا ١٢٦
خاتمة ١٢٨
المراجع ١٣٣
الفهرس ١٣٨

من إصداراتنا ..

أما آن لك أن تلتزم

بقلم

م. عبد المنعم الشحات

من إصداراتنا ..

أريد أن التزم ولكن ؟!..

كتبه

د. ياسر برهامي